

سُورَةُ يُوسُفَ

مكية وهي مائة وتسع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّ هَذَا السَّحْرُ مُبِينٌ ﴿٢﴾﴾ .

﴿الرَّ﴾ وقد تقدّم الكلام في الحروف المقطّعة ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات البينات ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي القرآن المعجز في تشريعه وبيانه ﴿الْحَكِيمِ﴾ صفةٌ للكتاب، ووصف بذلك لاشتماله على الحكم البالغة، فيراد بالحكيم ذو الحكمة، والقرآن أيضاً حاكم يميز الحق والباطل، ويفصل الحلال والحرام، ويقضي بالعدل والإحسان.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ﴾ أي العرب ﴿عَجَبًا﴾ الهمزة لإنكار تعجبهم، وتعجب السامعين منه، لكونه في غير محله، وإنما قال ﴿لِلنَّاسِ﴾ لا عند الناس للدلالة على أنهم اتخذوه أعجوبة لهم ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا﴾ بتقدير حرف الجر، أي لأن أوحينا ﴿إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ من أعقل رجالهم، دون عظيم من

عظمائهم، وقد كانوا يقولون: العجب أن الله لم يجد رسولا، يرسله إلى الناس، إلا «يتيم أبي طالب» وهذا من فرط حماقتهم، وقصور نظرهم، وجهلهم بحقيقة الوحي والنبوة، هذا وإنه ﷺ لم يكن يقصر عن عظائمهم فيما يعتبرونه، إلا في المال وخفة الحال، وما ذكروه من أنه يتيم إن أرادوا أن أصل اليتيم مانع من الإيحاء إليه، فهو أظهر بطلاناً، وما أطف ما قيل إن أنفس الدُرِّ «اليتيمة» وقيل للحسن: لِمَ جَعَلَ اللهُ النَّبِيَّ ﷺ يَتِيمًا؟ فقال: لثلاث يكون لمخلوق عليه منة، فإن الله سبحانه هو الذي آواه، وأدبه ورباه، وأما التقدم بكثرة المال فلا دخل له في ذلك قطعاً، بل إن الوحي تابع للاستعداد الأزلي، والسبق في إحراز الفضائل، جيلةً واكتساباً، ولا ريب أن النبي ﷺ في ذلك الشأن، في الغايات القاصية، وما أحسن ما قيل:

وَأَحْسَنُ مِنْكَ لَمْ تَرَ قَطُّ عَيْنِي وَمِثْلَكَ قَطُّ لَمْ تَلِدِ النَّسَاءَ
خُلِقْتَ مُبْرَأً مِنْ كُلِّ عَيْبٍ كَأَنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ كَمَا تَشَاءُ

﴿أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ أن هي المفسرة، أي أوحينا إليك بأن أنذر الناس كافة، وخوفهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي بشرهم برحمة الله ورضوانه لصدقهم وإيمانهم ﴿أَنْ لَهُمْ﴾ أي بأن لهم ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ أي أجراً حسناً بما قدموا من الأعمال الصالحة ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ إذ بالقدم يحصل السبق، والوصول إلى المنازل الرفيعة، وإضافتها إلى الصدق للدلالة على تحققها وثباتها، وللتنبية على أن مدار نيل ما نالوه هو صدقهم، وأصل القدم: العضو المخصوص، وأطلقت على سبق مجازاً، لكونها سببه وآلته، وأريد من سبق: الفضل والشرف، والتقدم المعنوي، فيعتبر بالصدق عن كل فعل فاضل، ويضاف إليه، كمقعد صدق، ومدخل صدق، إلى غير ذلك، وفسره ابن عباس بالأجر الحسن، وابن مسعود بالعمل الصالح، وقال الزجاج: ﴿قدم صدق﴾ أي منزلة رفيعة، والكل متقارب ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ﴾ هم المتعجبون، وإيرادهم هنا بعنوان الكفر

للتقبيح والتحقير، وترك العطف لجريانه مجرى البيان للجملة التي دخل عليها همزة الإنكار ﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي ما أوحى إليه ﷺ في الكتاب المنطوي على الإنذار والتبشير ﴿لَسَحَرٌ مُّبِينٌ﴾ بيّن وظاهر، وهذا اعترافٌ من حيث لا يشعرون، بأن ما عاينوه من الرسول ﷺ خارج عن طوق البشر، ولكنهم سموه ساحراً تمادياً في الغيِّ والعناد، كما هو ديدن المكابر اللجوج، وإذا كان في الناس من لا يؤمن بالقرآن، فهذا ليس تقصيراً في هداية القرآن، وإنما العيب فيهم، لأن هدايته كسائر الهداية الطبيعية التي أعرض الناس وعموا عنها، كهداية العقل والبصر ونحوهما، وقد يوقن الرجل أن في عمله مضرة تلحق به، ومع ذلك يعدل عن حكمه، انتهازاً للذة ينالها حسه أو وهمه، كما هو في مدمن الخمر والمسكرات، فهو كرجل يغمض عينيه ويمشي في طريق لا يعرفها، فيسقط في حفرة، وتتكسر عظامه، هل يُنقص ذلك من قدر بصره؟

﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأُمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ كلام مستأنف سبق لبطلان تعجبهم المذكور، بالتنبيه على بعض ما يدلُّ عليها من شؤون الخلق، وأحوال التكوين والتدبير، أي إن ربكم ومالك أمركم، الذي تتعجبون من أن يرسل إليكم رجلاً منكم، هو الله الذي خلق السموات والأرض.. الآية ثم علا فوق العرش علواً يليق بجلاله ﴿يُدِيرُ الْأُمْرَ﴾ التدبير النظر في أدبار الأمور وعواقبها، لتجيء محمودة العاقبة، والمراد ههنا التقدير على الوجه الأتم، والمراد من الأمر أمر ملكوت السماوات والأرض وغير ذلك، أي يقدر أمر الكائنات، والذي تعجبوا منه

من البعث، والوحي والنبوة والرسالة وقوله سبحانه: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ الاستثناء مفرغ من أعم الأوقات أي ما من شفيع يشفع لأحد، في وقت من الأوقات، إلا بعد إذنه تعالى، وذلك عند كون الشفيع من المصطفين الأخيار، والمشفوع له ممن يليق بالشفاعة وهو المؤمن ﴿ذَلِكَ اللَّهُ﴾ أي الموصوف بتلك الصفات الجليلة، المقتضية للألوهية والربوبية ﴿رَبُّكُمْ﴾ لا غيره إذ لا يشاركه أحد في شيء من ذلك ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ وُحْدَهُ بالعبادة، وأخلصوا له الطاعة، ولا تشركوا به شيئاً، من مَلِكٍ أو نبيٍّ، فضلاً عن جمادٍ لا يبصر، ولا يسمع، ولا يضر ولا ينفع ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ أي أفلا تتفكرون أدنى تفكر، فينهيكم على أنه هو المستحق للربوبية والعبادة، لا ما تعبدونه؟ وإيثارُ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ على تفكرو، للإيدان بظهور الأمر، وأنه كالمعلوم، الذي لا يفتقر إلى تفكر، بل إلى مجرد إخطار على الذهن.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي إليه رجوعكم بالبعث والنشور، لا إلى غيره، فاستعدوا للقاءه، والجملة كالتعليل لوجوب العبادة ﴿وَعَدَّ اللَّهُ﴾ مصدر مؤكد لنفسه، أي وعد الله بذلك عباده وعداً محققاً من الله ﴿حَقًّا﴾ مصدر آخر مؤكد لغيره، وهو ما دل عليه وعد الله ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي يحيي الخلاق ثم يميتهم، ثم يحييهم ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ أي بعدله ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي ويجزي الذين كفروا بشراب من ماء حار، قد انتهى حرّه، وعذاب أليم، بسبب كفرهم، والجمع بين صيغتي الماضي والمضارع للدلالة على مواظبتهم على الكفر.

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي آخِزَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ .

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً ﴾ أي خلقها ذات ضياء، والشمس هي أعظم الكواكب السيارة، كما تدل الآثار، ويشهد له الحسن، وفي هذا تنبيه على الاستدلال على وجوده تعالى، ووحدته، وعلمه، وقدرته، وحكمته، بآثار صنعه في النيرين، بعد التنبيه على الاستدلال بما مرَّ من إبداع السماوات والأرض، وإرشاد إلى أنه سبحانه حين دبر أمورهم المتعلقة بمعاشهم هذا التدبير البديع، فلأن يدبر مصالحهم المتعلقة بمعادهم بإرسال الرسل، وإنزال الكتب أولى وأحرى، أي خلقها الله سبحانه حال كونها ذات ضياء ﴿ وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ أي ذا نور، وسمي نوراً للمبالغة، والضياء أقوى من النور، فلذا جعله الله للشمس، وقد نبه سبحانه بذلك، على أنه خلق الشمس تيرة في ذاتها، والقمر نيراً بعرض لمقابلته الشمس، والاكساب منها ﴿ وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ ﴾ من حيث سيره، وتخصيصه بالذكر لسرعة سيره، ومعاينة منازلها، وإناطة أحكام الشرع به، ولذلك علل بقوله تعالى: ﴿ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ منازل القمر ثمانية وعشرون منزلاً، ينزل القمر كل ليلة في واحد منها، ثم يستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين، وإن كان تسعاً وعشرين اختفى ليلة واحدة قدرها الله سبحانه، ليعلم العباد عدد السنين والشهور والأيام، لإقامة المصالح الدينية والدنيوية، والمراد من الحساب، حساب الأوقات من الأشهر والأيام وغير ذلك مما يتعلق بالمصالح المذكورة ﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ ﴾ أي ما ذكر من الشمس، والقمر، على ما حكى من الأحوال ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أي ما خلق ذلك ملتبساً بشيء من الأشياء، إلا ملتبساً بالحق، مراعيًا لمقتضى الحكمة البالغة ﴿ يُفَصِّلُ

الآيَاتِ ﴿ أَي الآيات التكوينية المذكورة أو جميع الآيات فيدخل فيه المذكورات ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ فإنهم المنتفعون بها، فيستدلون بذلك على شؤون مبدعها جلّ وعلا، ويعلمون ما في تضاعيف الآيات المنزلة فيؤمنون بها.

﴿ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أي في تعاقبهما بطلوع الشمس وغروبها وكذلك طلوع القمر وأفوله، وقد يراد اختلافهما بحسب الأمكنة، في الطول والقصر، فإن البلاد القريبة من القطب الشمالي أيامها الصيفية أطول، ولياليها أقصر من أيام البلاد البعيدة منه، وكروية الأرض تقتضي أن تكون بعض الأوقات في بعض الأماكن ليلاً، وفي مقابله نهاراً ﴿ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ من الملائكة، والشمس، والقمر، والنجوم، والسحاب، والرياح، والأمطار ﴿ وَالْأَرْضِ ﴾ من الجبال، والبحار، والأنهار، والحيوانات، والنباتات، والأشجار ﴿ لَا آيَاتٍ ﴾ كثيرة دالة على وجود الخالق ووحدته، وكمال علمه وقدرته، وحكمته التي من جملتها ما أنكره، من إرسال الرسل، وإنزال الكتب، والبعث بعد الموت ﴿ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ خصهم لأن الداعي إلى النظر والتدبر إنما هو تقوى الله والحذر من العاقبة، فهم الواقفون على أن جميع المخلوقات آيات لوجود الخالق دون غيرهم.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ لا يتوقعونه لإنكارهم البعث، وذهولهم بالمحسوسات عمّا وراءها، والمراد بعدم الرجاء عدم التوقع مطلقاً أي لا

وهم على سرر مرفوعة، وأرائك مصفوفة ﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ منازلهم في الجنة.

﴿ دَعَوْتُهُمْ فِيهَا ﴾ دعاؤهم فيها ﴿ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ﴾ أي ننزهك يا الله عن صفات النقص، ونسبحك تسيحاً، يقولونه تقديساً لمقامه تعالى، عن شوائب العجز والنقصان، وتلذذاً بذكره، لا عبادة ﴿ وَحَيَّتُهُمْ ﴾ فيما بينهم ﴿ فِيهَا سَلَّمٌ ﴾ أو تحية الملائكة إياهم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾^(١) أو تحية الله تعالى كما في قوله تعالى: ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴾^(٢) ﴿ وَآخِرُ دَعْوَتِهِمْ ﴾ أي خاتمة دعائهم ﴿ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي دعاؤهم منحصر فيما ذكر، أول كلامهم التسيح، وآخره التحميد، ويتكلمون بما أرادوا.

﴿ وَلَوْ يَعِجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾^(١)

﴿ وَلَوْ يَعِجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ ﴾ هم الذين لا يرجون لقاء الله، أشير إلى بعض عظام معاصيهم، وهو استعجالهم بما وعدوا به من العذاب، تكديباً واستهزاءً، وجيء بلفظ الناس تفضيلاً للأمر ﴿ الشَّرَّ ﴾ الذي كانوا يستعجلون به، فإنهم كانوا يقولون: ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً ﴾^(٣) ونحو ذلك، ﴿ اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ ﴾ أي لو يعجل الله للناس الشر إذ استعجلوه، استعجالهم بالخير ﴿ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ لأميتوا وأهلكوا بالمرّة، وما أمهلوا طرفة عين، لكن الإنسان خلق عجولاً، والله

(١) سورة الرعد، آية: ٢٣.

(٢) سورة يس، آية: ٥٨.

(٣) سورة الأنفال، آية: ٣٢.

تعالى صبور حلیم، يؤخر للمصالح الجمّة، التي لا يهتدي إليها عقل البشر، ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ كأنه قيل: ولا نعجل لهم العذاب، بل نتركهم إمهالاً واستدراجاً ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ في تمردهم وعتوهم في إنكار البعث والجزاء ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون ويتحIRON.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ .

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ﴾ أي أصابه الضر، من مرض، أو فقر، أو قحط وغير ذلك من الشدائد، إصابةً يسيرة ﴿دَعَانَا لِجَنبِهِ﴾ أي دعانا لإزالته مخلصاً فيه، واللامُ تفيد اختصاص حدوثه واستقراره للجانب، ففيه مبالغة زائدة ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ أي في جميع الأحوال، لعدم خلو الإنسان عنها عادةً ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ﴾ أي أزلنا ما نزل به من الضر ﴿مَرَّ﴾ مضى على طريقته، ونسي حال الجهد والبلاء ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا﴾ كأنه لم يدعنا ﴿إِلَى ضُرِّ﴾ إلى كشف ضرر ﴿مَسَّهُ﴾ ذاقه قبل ذلك، وهذا وصفٌ للجنس ممن هو متصف بهذه الصفات ﴿كَذَلِكَ﴾ كما زُيِّنَ له الإعراض عند الرخاء ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي للمشركين المجاوزين الحدَّ في الكفر والطغيان ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الانهماك في الشهوات، والإعراض عن الطاعات، والإسراف: مجاوزة الحدِّ، وسُمُّوا أولئك مسرفين، لما أن الله تعالى، إنما أعطاهم القوى والمشاعر، ليصرفوها إلى مصارفها، من العلوم والأعمال الصالحة، وهم قد صرفوها إلى ما لا ينبغي، مع أنها رأس مالهم، ووجه الانتظام مع الآية الأولى، أنه سبحانه أشار في الأولى أن الكفرة يستعجلون نزول العذاب، ويبيِّن جلَّ شأنه هنا أنهم يكذبون في ذلك، فلو نزل بالإنسان أدنى شيء يكرهه، فإنه يتضرع إلى الله تعالى في إزالته عنه، وفي حديث للترمذي عن أبي هريرة: «من سرَّه أن يستجيب الله

له عند الشدائد والكُرب، فليكثر الدعاء في الرخاء»^(١) والآثار في ذلك كثيرة.

﴿ وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ ﴿١٣﴾ .

﴿ وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونََ ﴾ الأمم الخالية مثل قوم نوح، وهود، وعاد، وأضرابهم ﴿ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ من قبل زمانكم والخطاب لأهل مكة ﴿ لَمَّا ظَلَمُوا ﴾ حين ظلموا بالتكذيب، والتمادي في الغي والطغيان، ﴿ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ بالحجج الدالة على صدقهم ﴿ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾ أي وما استقام لهم أن يؤمنوا، لفساد استعدادهم، وخذلان الله لهم، وعلمه تعالى بأنهم يموتون على كفرهم، واللام لتأكيد النفي ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الفظيع، الذي هو عذاب الاستئصال بالمرة ﴿ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي كل طائفة مجرمة، وفيه وعيد شديد لكفار مكة، لأنهم مشتركون فيما يقتضي الإهلاك.

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَىٰ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ والمعنى ثم أخلفناكم في الأرض بعد أولئك القرون ﴿ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾؟ أي أي عمل تعملون من الأعمال الحسنة، كقوله تعالى: ﴿ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ فيه إشعار

(١) أخرجه الترمذي رقم ٣٣٧٩ في الدعوات، ورواه الحاكم في المستدرک ٥٤٤/١ من حديث سلمان الفارسي مرفوعاً وقال: صحيح الإسناد.

بأن المراد من الاستخلاف إنما هو ظهور الأعمال الحسنة، وأما الأعمال السيئة فبمعزل عن ذلك.

﴿وَإِذَا تُخَلِّيٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ التفات من خطابهم إلى الغيبة، إعراضاً عنهم، وتوجيهاً إلى الرسول ﷺ، بتحديد جناياهم المضادة لما أريد منهم بالاستخلاف، والمراد من الآيات الآيات الدالة على التوحيد، وبطلان الشرك، والإضافة لتشريف المضاف، والترغيب للإيمان بها والترهيب عن تكذيبها ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ يعني المشركين وضع الموصول موضع الضمير ذماً لهم بذلك، أي قالوا لمن يتلوها عليهم، وهو رسول الله ﷺ ﴿أَنْتَ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا﴾ بكتاب آخر نقرؤه، ليس فيه ما نستعده من البعث والثواب والعقاب، أو ما نكرهه من معائب آلهتنا ﴿أَوْ بَدِّلَهُ﴾ بأن تجعل مكان الآيات المشتملة على ذلك آيات أخرى ولعلمهم قالوا ذلك كيداً، ليتوسلوا به إلى الاستهزاء به ﷺ، وليس مرادهم أنه لو جاءهم آمنوا ﴿قُلْ﴾ أيها الرسول لهم ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ﴾ أي ما يصح ولا يستقيم أصلاً تبديله ﴿مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي﴾ أي من قبل نفسي وإنما اكتفى بالجواب عن التبديل احتقاراً لهم، لاستلزام امتناعه، امتناع الإتيان بقرآن آخر بطريق الأولى ﴿إِنْ أَتَيْتُ﴾ أي ما أتبع في شيء مما أتى به ﴿إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ من غير تغيير له في شيء أصلاً، فكأنه قيل: ما أفعل إلا أتباع ما يُوحى إليّ، وهو تعليل لصدر الكلام، ولما عرّضوا به بهذا السؤال أن القرآن كلامه ﷺ، ولذلك قيد التبديل في الجواب بقوله: ﴿مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي﴾ وسماه عصياناً عظيماً مستتبعا لعذاب عظيم، بقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بالتبديل والتحريف ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يوم القيامة، وفيه إشعار بأنهم استوجبه، بهذا الاقتراح الموحى بالسخرية والاستهزاء.

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ تحقيق لحقبة القرآن، وكونه من عند الله تعالى، والمعنى: إن الأمر كله منوط بمشيئته تعالى، وليس لي منه شيء قط، ولو شاء عدم تلاوتي له عليكم، بأن لم ينزله عليّ، ولم يأمرني بتلاوته ما تلاوته عليكم ﴿ وَلَا أَدْرِيكُمْ بِهِ ﴾ أي ولا أعلمتكم به بلساني ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا ﴾ مقدار مدة أربعين سنة، بطريق الاستشهاد عليه بما شاهدوا منه ﷺ، في تلك المدة الطويلة، من الأمور الدالة على استحالة ذلك من جهته ﷺ، والمعنى: قد أقمتُ فيما بينكم دهرًا مديدًا، تحفظون أحوالي طرأ ﴿ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أي من قبل نزول القرآن الكريم ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي أفلا تلاحظون ذلك، فلا تعقلون امتناع صدوره من مثلي، فإن ذلك غير خافٍ، على من له عقل سليم، بل إن من كان له أدنى مُسْكَةٍ من عقلٍ، إذا تأمل في أمره ﷺ، وأنه نشأ بينهم في مدة طويلة، من غير مصاحبة العلماء، في شأن من الشؤون، ولا مراجعة إليهم في فن من الفنون، ولا مخالطة للبلغاء في المحاوراة والمفاوضة، ولا خوض معهم في إنشاء الخطب والمعارضة، ثم أتى بكتاب بهرت فصاحته كل ذي أدب، وحيّرت بلاغته مصارع العرب، واحتوى على بدائع أصناف العلوم، ودقائق حقائق المنطوق والمفهوم، لا يبقى عنده شائبة اشتباه، في أنه وحي منزل من عند الله عز وجل.

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمَجْرُمُونَ ﴾

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ استفهام إنكاري معناه النفي، أي لا أحد أظلم ممن افترى عليه سبحانه كلاماً، فقال هذا من عند الله، فإنه أظلم من كل ظالم ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ فكفر بها كما فعل المشركون بتكذيبهم للقرآن ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ ضمير الشأن، وفائدته الإيذان بفخامة مضمون الكلام، وتقريره في الذهن، لأن الضمير لا يفهم من أول الأمر،

فيبقى الذهن مترقباً لما يعقبه، فيتمكن عند وروده فضل تمكّن ﴿لَا يُفْلِحُ
الْمُجْرِمُونَ﴾ أي لا ينجون من محذور، ولا يظفرون بمطلوب.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ
هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَبِتُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي
الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ حكاية لجناية أخرى
وهي من عطف القصة على القصة، أي يعبدون متجاوزين الله أحجاراً
وأصناماً لا تضرُّ ولا تنفع، لأنها جماد لا يقدر على نفع ولا ضرر،
والمعبود الحقُّ ينبغي أن يكون مثيباً ومعاقباً، حتى تكون عبادته بجلب نفع
أو دفع ضرر ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ﴾ أي الأصنام ﴿شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ تشفع لنا
في الآخرة، إن يكن بعث، وهذا من فرط جهالتهم، حيث تركوا عبادة
الموجد، الضار النافع، إلى عبادة ما يُعلم قطعاً أنه لا يضر ولا ينفع، على
توهم أنه ربما يشفع لهم عنده سبحانه، ونظيره في هذا الزمان، اشتغال
كثير من الخلق، بتعظيم قبور الأكابر، على اعتقاد أنهم إذا عظموا قبورهم،
فإنهم يكونون شفعاء لهم عند الله ﴿قُلْ﴾ تبيكيتاً لهم ﴿أَنْتَبِتُونَ اللَّهَ بِمَا لَا
يَعْلَمُ﴾ أي أتخبرون الله بما لا وجود له أصلاً، إذ لو كان لعلمه علام
الغيوب، وفيه توبيخ لهم وتهكم بهم لما يدعونه من المحال ﴿فِي السَّمَوَاتِ
وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي بما لا يعلمه كائناً في السماوات ولا في الأرض
﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي عن إشراكهم، وعن الشركاء الذين
يشركونهم به.

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ بيان بأن التوحيد والإسلام ملة قديمة، اجتمعت عليها الخلائق قاطبة، فطرةً وتشريعاً، وأن الشرك وفروعه جهالات ابتدعتها الغواة، أي وما كان الناس كافة من أول الأمر، إلا متفقين على الحق والتوحيد، من غير اختلاف، رُوي هذا عن ابن عباس، ومجاهد، ويؤيده قراءة ابن مسعود: «إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً عَلَى الْهُدَى»^(١) وذلك من عهد آدم إلى زمن نوح ﴿ فَاتَّخَذُوا ﴾ بأن كفر بعضهم، وثبت آخرون على ما هم عليه، فخالف كل من الفريقين الآخر ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ بتأخير العذاب الفاصل بينهم إلى يوم القيامة ﴿ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ عاجلاً ﴿ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ بإبقاء المحق، وإهلاك المبطل.

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ حكاية لجناية أخرى لهم، والقائلون أهل مكة ﴿ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ من الآيات التي اقترحوها، كآية موسى وعيسى، كأنهم لفرط العتو والفساد، لم يعدُّوا المعجزات البينات التي ظهرت على يديه ﷺ من الآيات الباهرة، والمعجزات المتكاثرة، لا سيما القرآن العظيم، الباقي إعجازه على وجه الدهر، إلى يوم القيامة، ولو أنصفوا لاستغنوا عن كل آية غيره ﷺ، فإنه الآية الكبرى، ومن رآه وسبر أحواله، لم يكذب شكُّ أنه رسول الله ﷺ ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم في الجواب ﴿ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾ هو المختص بعلمه، فلعله يعلم في إنزال الآيات المقترحة، مفاصد تصرف عن إنزالها، وكأنه يقول: إن ما طلبوه من أمور الغيب الخفية، التي لا يعرفون عواقبها، وأمر الغيب مختصُّ بالله تعالى وهو الذي يعلم ما به

(١) هذه القراءة محمولة على التفسير، لا على أنها قراءة من القراءات المتواترة، فتنبيه والله يرعاك.

الصلاح، لا أنتم ولا غيركم ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ هذا وعيد وتهديد، أي فانتظروا نزول العذاب بكم، إني معكم من المنتظرين لما يفعل الله بكم، بجحودكم الآيات العظام واقتراحكم غيرها.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِن بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ ﴿٢١﴾ .

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ أي صحة وسعة ﴿مِن بَعْدِ ضَرَاءٍ﴾ كقحط ومرض ﴿مَسَّتْهُمْ﴾ أي نزلت بهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم، وإسناد المس إلى الضراء، وإسناد الإذاقة إلى ضمير الجلالة، من الآداب القرآنية، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ والمراد بالناس: كفار مكة، لما روي أن الله تعالى، سلط عليهم القحط سنين، حتى كادوا يهلكون، فطلبوا منه ﷺ أن يدعو لهم، ووعدوه بالإيمان، فلما دعا لهم، ورحمهم الله، فأخصبت البلاد وكثرت الخيرات، طففوا يطعنون في آياته تعالى، ويعاندون رسوله ﷺ ويكيدونه ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ بالظعن فيها والتكذيب بأنها من عند الله، وسُمي الاستهزاء والتكذيب مكرًا، لأنه نوع من الكيد الخبيث لإطفاء نور الله، قال مجاهد ﴿مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ استهزاء وتكذيب، ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي قل لهم: الله أعجل عقوبة، وعذابه أسرع وصولاً إليكم، وتسمية العقوبة بالمكر، لوقوعها في مقابلة مكرهم ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ الذين يحفظون أعمالكم ﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ تحقيق للانتقام وتنبه على أن ما دبروا في إخفائه لم يخف على الحفظة، فضلاً على أن يخفى على الله تعالى، وكيفية كتابة ذلك، مما لا يلزم العلم به، وهي تعليل لأسرية مكره سبحانه: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ (١).

(١) سورة فاطر، آية: ٤٣.

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهَيْمَ بَرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ ﴿٢٢﴾ .

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ أي هو تعالى بقدرته الذي يحملكم في البر على الدواب، وفي البحر على السفن التي تسير فوق سطح الماء، ويجعلكم قادرين على قطع المسافة ﴿فِي الْبَرِّ﴾ مشاة أو ركباناً ﴿وَالْبَحْرِ﴾ بِالْفُلْكِ ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ﴾ أي في السفن فوق سطح الماء وفي لُجَّةِ البحر ﴿وَجَرَيْنَ بِهَيْمَ﴾ بمن فيها عدل عن الخطاب إلى الغيبة للمبالغة، كأنه يذكره لغيرهم، ليتعجب من حالهم، وينكر عليهم ﴿بَرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ أي لينة الهبوب موافقة لمقصدهم ﴿وَفَرِحُوا بِهَا﴾ بتلك الريح لطيبها ﴿جَاءَتْهَا﴾ جواب إذا، أي فاجأتها واستولت عليها ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ ذات عصفٍ، شديدة الهبوب، تكسر كل شيء، يقال: عصفت الريحُ عصفواً أي اشتدت، وأصل العصف: السرعة، والعاصفُ من باب النسب، كاللاين، والثامر، يستوي فيه المذكر والمؤنث، ولذا لم يقل عاصفة، مع أن الريح مؤنث ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ﴾ وهو ما علا وارتفع من اضطراب الماء ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ من جميع أمكنة مجيء الموج عادة ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أي أيقنوا أنهم أهلكوا وسُدَّتْ عليهم مسالك الخلاص، كمن أحاط به العدو ﴿دَعَوُا اللَّهَ﴾ أي أخلصوا الدعاء لله، واستغاثوا به وحده ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ من غير إشراك به لعودتهم للفطرة، وزوال المعارض من شدة الخوف ﴿لَئِنِ﴾ اللام موطئة للقسم، أي يقولون: والله لئن ﴿أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ﴾ الورطة والأهوال ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ بعد ذلك أبدأ ﴿مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ الموحِّدين، مؤمنين بك، متمسكين بطاعتك، وشاكرين لنعمتك، وإنما ورد اللفظ بصيغة اسم الفاعل ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ولم يقولوا: لشكرنك، للمبالغة والدلالة على الاستمرار في الشكر والثبوت عليه.

﴿ فَلَمَّا أَنْجَلَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا
بَغْيِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٢٣﴾ .

﴿ فَلَمَّا أَنْجَلَهُمْ ﴾ بإجابة دعائهم ممّا غشيه من الكربة، والفاء للدلالة على سرعة الإجابة ﴿ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ فاجزوا الفساد في الأرض، وسارعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والعصيان ﴿ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ مبطلين فيه، وهو احتراز عن الإفساد بحق، كتخريب قلاع الكفرة ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ ﴾ توجيه الخطاب إلى أولئك الباغين، للتشديد في التهديد والمبالغة في الوعيد ﴿ إِنَّمَا بَغْيِكُمْ ﴾ الذي تتعاطونه ﴿ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ ﴾ فإن وباله يرجع إليكم في الحقيقة لا على الذين تبغون عليهم، كقوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ ﴿ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ منفعة الحياة الدنيا، وهي فانية لا تبقى، ويبقى عقابها، وفيه بيان لكون ما فيها من المنفعة العاجلة شيئاً غير معتد به سريع الزوال ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ ﴾ في القيامة، أي تتمتعون متاع الحياة الدنيا ثم ترجعون إلينا ﴿ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بالجزاء عليه، وهو وعيد كقول الرجل لمن توعدّه: سأخبرك بما فعلت، وفي الآية الزجر عن الفساد والبغي، عن أنس قال: قال ﷺ: «ثلاثٌ هُنَّ رَوَّاجِعٌ عَلَىٰ أَهْلِهَا: الْمَكْرُ، وَالنَّكْثُ، وَالْبَغْيُ، ثُمَّ تَلَا ﷺ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ ﴾ ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ ﴿ وَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴾^(١) قال ﷺ: «ما من ذنبٍ أجدُرُ أن يُعَجَّلَ اللهُ لصاحبه العقوبة، من البغي، وقطيعة الرحم»^(٢).

(١) أخرجه أبو نعيم والديلمي.

(٢) أخرجه البيهقي من حديث أبي بكرة مرفوعاً، وانظر تفسير ابن كثير ٤٢٨/٢.

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا وَعَلَيْهَا أَتَتْهَا أَمْرٌ نَارِيٌّ أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَنْفَكِرُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ كلام مستأنف، مسوق لبيان شأن الحياة الدنيا، وقصر مدة التمتع فيها، وقرب زمان الرجوع الموعود، شبه حالها العجيبة، في سرعة تقضيها، وانصرام نعيمها، غيب إقبالها، واغترار الناس بها، بحال ما على الأرض من أنواع النباتات، في زوال رونقها ونضارتها، وذهابها حطاماً، بعدما كانت غضة طرية، قد التفَّ بعضها على بعض، وازينت الأرض بألوانها، بحيث طمع الناس، وظنوا أنها سلمت من الجوائح ﴿ كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ كمثل مطر نزل من السماء ﴿ فَاخْتَلَطَ بِهِ ﴾ أي كثر بسببه واختلط به ﴿ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾ فاشتبك حتى خالط بعضه بعضاً ﴿ وَمِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ ﴾ كالبر، والبقل والثمار ﴿ وَالْأَنْعَامُ ﴾ كالكلأ والحشيش ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ﴾ أي بهجتها وحسنها من النبات، والترخرف عبارة عن كمال حسن الشيء ﴿ وَازَّيَّنَتْ ﴾ أي تزينت بأصناف النباتات، وأشكالها، وألوانها المختلفة، كعروس أخذت من ألوان الثياب، والزينة، وتحلَّت بها ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَا ﴾ أي أهل الأرض ﴿ أَنَّهُمْ قَدِرُوا وَعَلَيْهَا ﴾ أي متمكنون من حصدها ورفع غلتها ﴿ أَمْرٌ نَارِيٌّ أَوْ نَهَارًا ﴾ أي نزل بها ما قدرناه من العذاب، وهو هلاك زرعها بما يستأصله من الآفات كالبرد، والجراد، والسموم وغير ذلك ﴿ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ﴾ فيه الإشارة إلى أنه لا فرق في إتيان العذاب، بين زمن غفلتهم، وزمن يقظتهم ﴿ فَجَعَلْنَاهَا ﴾ أي زرعها وسائر ما على الأرض من النبات ﴿ حَصِيدًا ﴾ أي كالمحصود من أصله ﴿ كَأَن لَّمْ تَعْنِ ﴾ أي كأن لم ينبت زرعها، من غني بالمكان إذا أقام فيه ﴿ بِالْأَمْسِ ﴾ فيما قبله، وهو مثل في الوقت القريب، والممثل به هو زوال خضرة النبات فجأة، وذهابه حطاماً بعدما كان غصاً طرياً، وزين الأرض حتى

طمع أهلها فيه، وظنوا أنه قد سلم من الجوائح ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك التفصيل البديع ﴿فَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي الآيات القرآنية، نوضحها ونبينها ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ما في تضاعيفها من العبر، وتخصيص تفصيلها بهم، لأنهم المنتفعون بها.

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٢٥﴾ .

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ ترغيب للناس في الحياة الآخروية الباقية، أي يدعو الناس إلى الجنة، حيث يأمرهم بما يفضي إليها، وسميت الجنة ﴿دَارِ السَّلَامِ﴾ لسلامة أهلها عن كل ألم وآفة، أو لأن الله تعالى يسلم عليهم ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ هدايته ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي إلى طريق مستقيم هو الإسلام، والتدرع بلباس التقوى، وفي تعميم الدعوة، وتخصيص الهداية بالمشيئة، دليل على أن الأمر غير الإرادة، وأن المصّر على الضلالة لم يرد الله رشده، فالكافر مأمور، وليس بموفق، ومشيئته تعالى تابعة للحكمة، فمن علم أنه لا ينفع فيه اللطف لم يوفقه، لأنه يكون عبثاً، والحكمة منافية للعبث، فهو جلّ وعلا يهدي من ينفعه اللطف.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَدَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ .

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ أي العمل، بأن فعلوا المأمور به، واجتنبوا المنهية عنه ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ المثوبة الحسنی، وهي الجنة ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ وهي النظر إلى وجه ربهم الكريم جلّ جلاله، وهو التفسير المأثور عن أبي بكر، وعلي، وابن عباس، وابن مسعود، وروي مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ من طرق شتى، روى مسلم عن صهيب بن سنان عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، يقول تبارك وتعالى: تُريدون شيئاً أزيدكم؟ يقولون: ألم تُبِضْ

وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم»^(١) وفيه إثبات رؤية الله للمؤمنين، أكرمنا الله في الجنة بسعادة لقاءه ﴿وَلَا يَرَهُمْ﴾ أي لا يغشاها ﴿فَتَرَهُمْ﴾ عبّرة فيها سواد ﴿وَلَا ذَلَّةٌ﴾ هوانٌ، والتنكير للتحقير، والمعنى: لا يرهقهم ما يرهق أهل النار من حزن وسوء، والجملة لبيان أنهم من المكاره، إثر بيان فوزهم بالمطالب ﴿أُولَئِكَ﴾ أي المذكورون باعتبار اتصافهم بما تقدم ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دائمون لا زوال فيها، ولا انقراض لنعيمها.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرَهَّقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنْ آيِلٍ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ لما شرح الله سبحانه أحوال المسلمين، وما أعدَّ لهم من الكرامة شرح في هذه الآية حال من أقدم على السيئات، والمراد من السيئات: الشرك والعصيان ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ أي جزاء الذين كسبوا السيئات، جزاء سيئة بمثلها، أي يجازى سيئة بسيئة مثلها، لا يزداد عليها كما يزداد في الحسنه ﴿وَتَرَهَّقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي هوانٌ عظيم، فالتنوين هنا للتفخيم ﴿مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ من عقابه ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ من مانع يعصمهم من عذابه ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ﴾ غُطِيَتْ ﴿وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنْ آيِلٍ﴾ لفرط سوادها وظلمتها ﴿مُظْلِمًا﴾ أي كأنما ألبست وجوههم سواداً من الليل المظلم ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الدائمون فيها لا يخرجون منها أبداً.

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الإيمان رقم ١٨١ وزاد في رواية أخرى: «ثم تلا ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرَهَّقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنْ آيِلٍ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وأخرجه الترمذي برقم ٢٥٥٥.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فَزَيْلَنَا بَيْنَهُمُ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ﴾ الضمير في ﴿ نَحْشُرُهُمْ ﴾ لكلا الفريقين، لأنه المتبادر من قوله تعالى ﴿ جَمِيعًا ﴾ ومن أفراد الفريق الثاني، في قوله تعالى ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ أي نقول للمشركين من بينهم، والإخبار بحشر الكل في تهويل اليوم أدخل، وتوبيخهم على رؤوس الأشهاد أقطع ﴿ مَكَانَكُمْ ﴾ أي الزموا مكانكم، والمراد انتظروا حتى تنظروا ما يفعل بكم، وهي كلمة مختصة بالتهديد والوعيد ﴿ أَنْتُمْ ﴾ توكيد للضمير ﴿ وَشُرَكَائِكُمْ ﴾ المراد بها: الأصنام ﴿ فَزَيْلَنَا بَيْنَهُمُ ﴾ أي ففرقنا بينهم، وقطعنا الوصل التي كانت بينهم، وهو من زلت الشيء من مكانه أزيله أي أزلته، والتضعيف للتكثير لا للتعديء ﴿ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ ﴾ أي من عبدهم من دون الله، من الأوثان والأصنام، فإن أهل مكة إنما كانوا يعبدونها، وهم المعنيون بأكثر هذه الآيات، ونسبة القول لها غير بعيد من قدرته سبحانه، فينطقها الله الذي أنطق كل شيء، في ذلك الموقف المهيب، فنقول لهم: ﴿ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ ﴾ أي نتبرأ من عبادتكم لنا، واعتقادكم بألوهيتنا، وإنما تبرؤوا منهم، لأنهم إنما عبدوا في الحقيقة أهواءهم، لأنها الأمرة لهم بالإشراك بالله تعالى.

﴿ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ فإنه العليم الخبير، العالم بكنه الحال، قال شركاؤهم عند قول المشركين والله إياكم نعبد، فقال الشركاء: فكفى بالله شهيداً ﴿ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾ أي ما كنا عن عبادتكم لنا إلا غافلين، لا نسمع، ولا نبصر، ولا نعقل.

﴿ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلَّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتُرُونَ ﴿٣٠﴾ .

﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المقام المدهش، وهو مقام الحشر وفي ذلك الوقت ﴿تَبَلَّوْا﴾ تُختبر وتذوق ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ مؤمنة كانت أو كافرة، سعيدة أو شقية ﴿مَا أَسْلَفَتْ﴾ ما قدمت من العمل، مستتبعاً لآثاره، من نفع أو ضرر، وخير أو شر ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ﴾ أي وردُّوا إلى الله المتولي جزاءهم ﴿مَوْلَاهُمْ﴾ ربهم الجليل المتولي لأمرهم ﴿الْحَقُّ﴾ المتحقق في ربوبيته لا ما اتخذه رباً باطلاً، فإن قلت: قد قال الله سبحانه في آية أخرى: ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ قلنا: المولى في اللغة يُطلق على المالك، وعلى الناصر، فمعناه هنا المالك، وهناك الناصر ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي ضاع وذهب عنهم وظهر ضلاله ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ما كانوا يدعون أنها آلهة، وضمير الجمع للنفوس المدلول عليها بكل نفس، والعدول إلى الماضي ﴿ضَلَّ﴾ للدلالة على التحقق والثبوت.

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ﴿٣١﴾ .

﴿ قُلْ ﴾ يا رسول الله لأولئك المشركين ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾؟ أي منهما جميعاً، من ينزل لكم الغيث والقطر من السماء، ويخرج لكم الزروع والثمار من الأرض؟ الأول بمنزلة الفاعل، والثانية بمنزلة القابل، فإن الأرزاق تحصل بأسباب سماوية، ومواد أرضية ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾؟ أي من يستطيع خلقهما على هذه الفطرة العجيبة؟ ومن وقف على تشريحهما، وقف على ما يبهر العقول ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أي ومن ينشئ الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان، والطيور من البيضة، والسنبلة من الحبة، والشجرة من النواة؟ وقيل: المراد بالحيِّ والميت، المؤمن والكافر، وعلى هذا القول يكون اللفظ من باب الاستعارة، والأول أولى ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾؟ أي ومن يلي

تدبير أمر العالم جميعاً؟ وهو تعميم بعد تخصيص، وفيه إشارة إلى أن الكل منه سبحانه ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ بلا تلغثم ولا تأخير ﴿اللَّهُ﴾ إذ لا مجال للمكابرة والعناد لغاية وضوحه، والاسم الجليل مبتدأ والخبر محذوف، أي الله يفعل ما ذكر من الأفاعيل لا غيره، وهذه الآية صفة لوجوه القدرية، الزاعمين أن الحرام غير رزق الله، بل العبد يرزق نفسه منه، وتلفح وجوه أناس يزعمون أن الذي يدبر الأمر في كل عصر قطبه، وهذا ذهاب إلى القول بوحدة الوجود، وهذا ضلال مبين عند المتكلمين، وأهل الصوفية الحقنة ﴿فَقُلْ﴾ عند ذلك يا رسول الله ﴿أَفَلَا نُنْقِذُكُمْ﴾؟ الهمزة لإنكار الواقع، أي أتعلمون ذلك فلا تتقون عذابه، بإشراككم به سبحانه؟.

﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾
 ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿فَذَلِكُمْ﴾ أي ذلكم الذي اعترفتم باتصافه بالنعوت المذكورة ﴿اللَّهُ رَبُّكُمُ﴾ مالكم ومتولي أموركم على الإطلاق ﴿الْحَقُّ﴾ الثابت ربوبيته، والمتحقق ألوهيته، لأنه هو الذي أنشأكم، ورزقكم، ودبر أموركم ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾؟ فمن تخطى الحق الذي هو عبادة الله، وقع في الضلال، لأنه لا واسطة بين الحق والضلال ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾؟ أي فكيف تصرفون عن الحق إلى الضلال، مع قيام البرهان؟ استفهام إنكاري للإيدان بأن الانصراف من الحق إلى الضلال، ممّا لا يكاد يصدر عن العاقل.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي كما ثبت أنه ليس بعد الحق إلا الضلال كذلك ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي حكمه وقضاؤه العادل ﴿عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ أي على الذين تمرّدوا في الكفر، وخرجوا عن حد الاستصلاح ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي حقت على أولئك المتمردين كلمة العذاب لأنهم لا يؤمنون.

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتُمْ تَوَفَّكُونَ ﴾ ﴿٢٤﴾ .

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ ﴾ احتجاج آخر على أحقية التوحيد، وبطلان الإشرك، والسؤال للتبكيك والإلزام، أي هل يوجد من الأوثان والأصنام ﴿ مَنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ أي من ينشئ الخلق من العدم، ثم يُفنيه، ثم يعيده ويحييه؟ ولما كانوا مفحمين لا يستطيعون الجواب، أمر ﷺ أن يكشف لهم باطلهم بقوله: ﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ أي الله يبدأ ويعيد لا غيره من الشركاء، وفهم الحصر بدلالة الفحوى ﴿ فَأَنْتُمْ تَوَفَّكُونَ ﴾؟ الإفكُ الصرف عن الشيء، أي كيف تُقلبون من الحق إلى الباطل؟ وتُصرفون عن الهدى إلى الضلال؟

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ ﴿٢٥﴾ .

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ﴾ احتجاج آخر على ما ذكر، جيء به إلزاماً لهم على ضلالهم في عبادة غير الله، والمعنى: هل من يهدي إلى الحق، بإعطاء العقل، وبعثة الرسل، وإنزال الكتب، والتوفيق إلى التدبر بما نصب في الآفاق، والأنفس، هل هو الله سبحانه أم الشركاء؟ ﴿ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ﴾ أي الله يهدي له دون غيره، أي قل لهم: إن عجزت آلهتكم عن ذلك، فالله وحده هو القادر على هداية الضال، وإنارة السبيل، وبيان الحق الساطع ﴿ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ﴾ فالمقصود به التعميم وإن كان الفاعل في الواقع الله عز وجل، والتقدير أفمن يهدي غيره إلى الحق ﴿ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي ﴾ بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال، وأصله لا يهتدي أي لا يهتدي بنفسه فضلاً عن هداية غيره ﴿ إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ ﴾ أي إلا أن يهديه الله سبحانه ﴿ فَمَا لَكُمْ ﴾ أي أي شيء لكم، في اتخاذكم هؤلاء شركاء لله

سبحانه، والاستفهام للإنكار التوبيخي، وفيه تعجب من حالهم ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بما يقتضي صريح العقل بطلانه.

﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ .

﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ كلام مبتدأ مسوق من قبله تعالى، لبيان عدم فهمهم للبرهان النير، أي ما يَنْبَغُ أكثرهم في معتقداتهم إِلَّا ظناً واهياً، من غير مستند من دليل أو برهان، بل مجرد ظنون وأوهام، وخرافات فاسدة يتبعون بها آباءهم، ووجه تخصيص هذه الاتباع لأكثرهم، للإشعار بأن بعضهم قد يقفون على حقيّة التوحيد، وبطلان الشرك، لكن لا يقبلونه مكابرة وعناداً، وقيل: المراد بالأكثر الجميع ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ﴾ عن العلم واعتقاد الحق ﴿شَيْئًا﴾ من الإغناء، وفيه دلالة على وجوب العلم في الأصول الاعتقادية، وعدم جواز الاكتفاء بالتقليد، وأن إيمان المقلد غير صحيح ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ فيجازي عليها، وعيد لهم على أفعالهم القبيحة.

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٣٧﴾ .

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي ما صح وما استقام أن يكون هذا القرآن المشحون بفنون الهدايات المستوجبة للاتباع، التي من جملتها الحجج البينة بحقية التوحيد وبطلان الشرك، أي ما كان هذا القرآن لأن يُفترى من الخلق، وأن يكون صادراً من غير الله تعالى ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي ولكن الله أنزل هذا القرآن، مصدقاً لما تقدمه من الكتب الإلهية، كالتوراة والإنجيل، ولا يكون كذباً بحال من الأحوال، كيف وهو شاهد على صحتها، وتصديق الكتب له، بأن ما فيه من العقائد الحقّة،

مطابق لما فيها، وهو مشتمل على قصص الأولين، حسبما ذكر فيها، وهو معجز دونها فهو الصالح لأن يكون حجةً وبرهاناً لغيره، لا العكس ﴿وَتَقْصِصَ الْكُتُبِ﴾ أي ما كتب وأثبت من الحقائق والشرائع ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا شك أنه كلام الله متفياً منه الريب ﴿مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي وتصديق من رب العالمين.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٣٨)

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ أم منقطعة وهي مقدره بيل والهمزة لإنكار الواقع، أي بل يقولون افتراه النبي ﷺ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله لهم، إظهاراً لبطلان مقالتهم: إن كان الأمر كما تقولون ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ في البلاغة، وحسن النظم، وقوة المعنى، فإنكم مثله في العربية والفصاحة، أي فأتوا من عند أنفسكم، أو ممن تقدمكم من فصحاء العرب، كامرئ القيس، وزهير، وأمثالهما، بسورة مماثلة له في صفاته الجليلة، فحيث عجزتم عن ذلك، دل على أنه ليس من كلام البشر، بل هو من كلام خالق الكون، رب العزة والجلال ﴿وَادْعُوا﴾ للمعاونة والمظاهرة ﴿مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ﴾ دعاءه والاستعانة به، من آلهتكم التي تزعمون أنها ممددة لكم في المهمات، وممن أمكنكم أن تستعينوا به ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي سوى الله تعالى، فإنه وحده قادرٌ على ذلك، ولا يقدر عليه أحد من خلقه، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنه اختلقه، فإن ذلك مستلزم لإمكان الإتيان بمثله.

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣٩)

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ﴾ أي كذبوا القرآن، وسارعوا إلى تكذيبه من غير أن يتدبروا ما فيه، ويقفوا على ما في تضاعيفه من الشواهد، الدالة على كونه كلام رب العالمين، والتعبير عنه بهذا العنوان، دون أن يقال: بل كذبوا به من غير أن يحيطوا بعلمه، للإيدان بكمال جهلهم به، وأنهم لم يعلموه ولم يدركوا ما فيه من وجوه الإبداع والإعجاز، وأنّ تكذيبهم به، إنما هو بسبب عدم إحاطتهم بعلمه ﴿ وَكَمَا يَأْتِيهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ أي ولم يقفوا بعد على معانيه المنبئة عن علو شأنه، وسطوع برهانه، ولم يتبين لهم إلى الآن تأويل ما فيه، من الإخبار بالغيوب، حتى يظهر أنه صدق أم كذب، والمعنى: إن القرآن معجز من جهة النظم، والمعنى، ومن جهة الإخبار بالغيوب، وهم فاجؤوا تكذيبه، قبل أن يتدبروا نظمه، ويتفكروا في معناه، أو ينتظروا وقوع ما أخبر به من الأمور المستقبلية ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي مثل تكذيبهم من غير تدبر وتأمل ﴿ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أنبياءهم في معجزاتهم ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ خطاب لسيد الرسل أو لكل من يصلح له، والمراد بالظالمين الذين كذبوا الرسل من السابقين واللاحقين، أي انظر كيف أخذهم الله بالعذاب والهلاك، بسبب ظلمهم وبعيهم؟ فكما أهلك الله أولئك الطغاة، يهلك هؤلاء المكذبين.

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ
بِالْمُفْسِدِينَ ﴾

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ أي منهم سيؤمن به ويتوب عن الكفر ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ أي لا يصدق به في نفسه، لفرط غباوته ولسخافة عقله، وعجزه عن التخلص من الشكوك والأوهام التي ألقها، فيموت على كفره، معانداً أو شاكاً ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ أي بكلا الفريقين، من المعاندين، والشاكين، لاشتراكهما في أصل الإفساد.

﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٤١﴾ .

﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ ﴾ وإن أصروا على تكذيبك، بعد إزام الحجة، وأول بذلك، لأن أصل التكذيب حاصل، فلا يصح فيه الاستقبال ﴿ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ فتبرأ منهم، فقد أعدرت، والمعنى قل لهم: لي جزاء عملي، ولكم جزاء عملكم ﴿ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي لا تؤاخذون بعلمي، ولا أوأخذ بعملكم، ومعنى الآية الزجر والردع.

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ءَأَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ﴿٤٢﴾
 ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ ءَأَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴾ ﴿٤٣﴾ .

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ أي ومن المكذبين أناس، يستمعون إليك إذا قرأت القرآن، ولكن لا يقبلونه، كالأصم الذي لا يسمع أصلاً، لكونهم مطبوعاً على قلوبهم، بحيث لا سبيل إلى إيمانهم ﴿ ءَأَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ ﴾ أي هل أنت تقدر على إسماعهم؟ ﴿ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أي ولو انضم إلى صممهم عدم تعقلهم، والأصم العاقل، ربما تفرس إذا وصل إلى صماخه دوي، أمّا إذا اجتمع فقدان السمع، والعقل، فقد تمّ الأمر، وفيه تنبيه على أن استماع الكلام، لفهم المعنى المقصود منه، ولذلك لا يوصف به البهائم، وهو لا يأتي إلا باستعمال العقل السليم، في تدبره وتفكره، وعقولهم لما كانت عليلة، بمعارضة الوهم، ومشايعة الألف والتقليد، تعدّر فهمهم الحكّم والمعاني الدقيقة، فلم ينتفعوا بمجرد الألفاظ إلا كما تنتفع البهائم من كلام الناقق.

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ ﴾ بأبصارهم الظاهرة، ويعاين دلائل نبوتك، ولكن لا يصدقونك، ولا يهتدون بها كالأعمى ﴿ ءَأَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْىَ ﴾؟ أي

هل تقدر على هدايتهم ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾؟ أي وإن انضمم إلى عدم البصر، عدم البصيرة؟ والمقصود من الإبصار هو الاعتبار، والعمدة في ذلك البصيرة، ولذلك قد يتفطن الأعمى المستبصر، لما لا يدركه البصير الأحمق، فحيث اجتمع فيهم الحمق والعمى، فقد انسدت عليهم أبواب الهداية، إلى طريق الرحمة والجنة.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^{٤٤}
 وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾^{٤٥}.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ بسلب حواسهم وعقولهم، ولا يعاقب أحداً بدون ذنب، بل تكفل بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، فضلاً منه جل شأنه وكرماً ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بإفسادها وتفويت منافعها عليها، كما ظلموا أنفسهم باقترافهم الكفر، حيث عبدوا جماداً وهم أحياء.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي اذكر لهم يوم حشرهم ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا﴾ أي كأنهم لم يلبسوا في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾ أي شيئاً قليلاً منه، فالساعة مثل في غاية القلة، يستقصرون مدة لبثهم، لهول ما يرون من الكرب والعذاب ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يعرف بعضهم بعضاً، كأنهم لم يتفارقوا إلا قليلاً، وهذا تعارف توبيخ وافتضاح، يقول الواحد للآخر: أنت أغويتني وأضللتني!! وليس تعارف محبة ومودة. ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ أي لقد خسر حقاً هؤلاء الظالمون، الذين كذبوا بالبعث والنشور، والآية شهادة على خسرانهم، والتعجب منه، والمراد بلقاء الله الحساب والجزاء ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إلى طريق النجاة في الدنيا والآخرة.

﴿وَلِمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِينَاكَ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ إِيَّاهُ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾^{٤٦}.

﴿وَأَمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ أي إن أريناك يا محمد بعض عذابهم في الدنيا لتقرَّ عينك منهم فذاك، وإلا فالعذاب ينتظرهم، والرؤية بصرية، أي إمَّا نرينك بعينك ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب في حياتك، كما أراه يوم بدر ﴿أَوْ نُنَوِّقَنَّكَ﴾ قبل أن نتقم منهم ﴿فَالْيَتَنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ جواب للشرط، والمعنى: إنَّ عذابهم في الآخرة مقرَّرٌ، عُدِّبوا في الدنيا أولاً ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ من الأفعال السيئة التي حُكيت عنهم، فيجازيهم عليها.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨).

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الخالية ﴿رَسُولٌ﴾ بُعث إليهم ليدعوهم إلى الحقِّ، بشريعةٍ خاصة مناسبة لأحوالهم، ويؤكد هذا بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (١) ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ بالبينات فبلغهم فكذبوه ﴿قُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الرسول ومكذبيه ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل، فَأُنجِيَ الرسولُ، وأهلك الله المكذبين ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ في ذلك القضاء، يُجازى كل أحد على قدر عمله، وقيل معنى الآية: لكل أمة رسولٌ يوم القيامة، فإذا جاء رسولهم الموقف، ليشهد عليهم بالإيمان أو الكفر، قضي بينهم بإنجاء المؤمن، وعقاب الكافر، لقوله تعالى: ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ (٢) وهذا ممَّا رواه ابن جرير وغيره عن مجاهد.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾؟ أي متى هذا العذاب الذي تعدنا به؟ يريدون به العذاب الدنيوي، ويقولون ذلك استبعاداً له واستهزاءً به، لا طلباً لوقت مجيئه ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ خطاب منهم للنبي ﷺ والمؤمنين الذين يتلون عليهم الآيات المتضمنة للوعيد.

(١) سورة فاطر، آية: ٢٤.

(٢) سورة الزمر، آية: ٦٩.

﴿ قُلْ لَا أَمَلُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (٤٩)

﴿ قُلْ لَا أَمَلُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ فكيف أملك لكم فاستعجل في جلب العذاب إليكم، ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ الاستثناء منقطع، أي لكن ما شاء الله لي فإنه يحصل بتقديره تعالى، دون أن يكون لي دخل فيه ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ من الأمم الذين أصروا على التكذيب ﴿ أَجَلٌ ﴾ لعذابهم يحلُّ بهم عند حلوله ﴿ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ ﴾ أي أجلُ هلاكهم ﴿ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ ﴾ عنه ﴿ سَاعَةً ﴾ شيئاً قليلاً من الزمان ﴿ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ عليه، فلا تستعجلوا العذاب، فسيجيء وقتكم، وينجز وعدكم.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (٥١) ﴿ أَمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ءَلْقَنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ (٥١)

﴿ قُلْ ﴾ يا رسول الله لهم، بعد ما بيَّنت لهم كيفية حالكم، وجريان سنة الله تعالى فيما بين الأمم، وتبَّهتهم على أن عذابهم أمر مقرر، لا يتوقف إلا على مجيء أجله المعلوم ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ ﴾ الذي حدَّده لهلاككم، والذي تستعجلونه لجهلكم وحمافتكم، إذا جاءكم هذا العذاب ﴿ بَيِّنَاتٍ ﴾ أي وقت بيات في الليل ﴿ أَوْ نَهَارًا ﴾ أي عند اشتغالكم بمشاغلكم، وإنما لم يقل «ليلاً ونهاراً» ليظهر التقابل، لأن المراد الإشعار بالنوم، والغفلة، والبيات يفيد ذلك، لأنه الوقت الذي يُبيَّت فيه العدو، ويوقع فيه، ويغتنم فرصة غفلته، وليس في مفهوم الليل هذا المعنى ﴿ مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾؟ أي شيء من العذاب يستعجلونه؟ وكله مكروه لا يلائم الاستعجال؟ وكان ينبغي أن يفزعوا من العذاب، فضلاً عن أن يستعجلوه.

والمراد بقوله سبحانه: ﴿ أَمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ﴾ زيادة التنديم

والتجهيل، أي أبعد ما وقع العذاب، وحلَّ بكم حقيقة آمنتكم به، حين لا ينفعكم الإيمان وقوله تعالى: ﴿ءَأَلْتَن﴾ أي قيل لهم عند إيمانهم بعد وقوع العذاب: الآن آمنتكم به؟ إنكاراً للتأخير، وتوبيخاً عليه ﴿وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ سَتَعْمِلُونَ﴾ تكديباً واستهزاء.

﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ وَاسْتَسْخِرُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ .

﴿ ثُمَّ قِيلَ ﴾ لتوكيد التوبيخ ﴿ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي ظلموا أنفسهم بتعريضها للهلاك ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ ﴾ أي المؤلم على الدوام ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ ﴾ أي ما تجزون اليوم ﴿ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ أي إلا جزاء ما اقترفته من أنواع الكفر والمعاصي.

﴿ وَاسْتَسْخِرُونَكَ ﴾ أي يستخبرونك فيقولون على طريق الاستهزاء والإنكار ﴿ أَحَقُّ هُوَ ﴾ أي العذاب الموعود ﴿ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ أي قل لهم غير مكترث باستهزائهم: نعم إن ذلك العذاب ثابت لا محالة، أقسم لكم بربي، و«إي» بمعنى نعم ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي وما أنتم بمعجزين ربكم بهرب أو امتناع من العذاب، لأنكم في قبضته وسلطانه^(١).

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ۗ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ۗ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۗ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ .

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ﴾ بالشرك والتعدي على الغير، كما قال سبحانه: ﴿ إِنْ الشَّرْكَ لظَلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ ﴿ مَا فِي الْأَرْضِ ﴾ من خزائنها وأموالها

(١) وذهب الطبري إلى أن المعنى: لستم بفارين من العذاب بل هو مدركم لا محالة.

ومنافعها قاطبة مع كثرتها ﴿لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ لجعلته فدية لها من العذاب، من قولهم افتداه بمعنى فداه أي لا فتدت نفسها به ﴿وَأَسْرُوا﴾ أي النفوس المدلول عليها بكل نفس، والاسرار: الإخفاء أي أخفوا ﴿الْندامة﴾ أي الغم والأسف على ما فعلوا من الظلم ﴿لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ عند معابنتهم للعذاب، رأوا ما فيه من فظاعة الحال وشدة الأهوال ﴿وَقُضِيَ﴾ أي حُكِمَ وفُصِّلَ ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي بين النفوس الظالمة ﴿بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أصلاً، لأنه لا يُفعل بهم إلا ما يقتضيه جزاء أعمالهم، وقيل: ضمير ﴿بَيْنَهُمْ﴾ للظالمين والمظلومين، والمعنى: وقُضيت الحكومة بين الظالمين والمظلومين.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾ .

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقرير لقدرته تعالى على الإثابة والعقاب، أي إن له سبحانه لا غيره تعالى، ما وُجد فيهما، فإن من يملك جميع الكائنات، وله التصرف فيها، قادرٌ على ما ذُكر ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ ما وعده من الثواب والعقاب، كائن لا خلف فيه، أي جميع ما وعده به كائناً ما كان، فيندرج فيه العذاب الذي استعجلوه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ لقصور عقلهم واستيلاء الغفلة عليهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك فيقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون.

﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ في الدنيا فهو يقدر عليهما في الأخرى، لأن القادر لذاته لا تزول قدرته، والمادة القابلة بالذات للحياة والموت، قابلة لهما أبداً ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالموت إلى حسابه وجزائه.

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ .

﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ التفات ورجوع إلى استمالتهم نحو الحق، عُبِّ تحذيرهم من غوائل الضلال، وإيدان بأن جميع ذلك مسوق لمصالحهم ومنافعهم وهذا وجه الربط بما تقدم، والقرآن واعظ بما فيه من الترهيب والترغيب، كاشف عن الأعمال حسنها وسيئاتها، ﴿ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ ﴾ شفاء لما في الصدور من الأدواء القلبية كالجهل، والشرك، والشكوك، والنفاق، وسوء الاعتقاد وغيرها. ﴿ وَهَدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ والقرآن هاد إلى الحق واليقين، ورحمة للمؤمنين، حيث نجوا به من ظلمات الكفر والضلال، إلى نور الإيمان والإيقان، وتخلصوا من دركات النيران إلى درجات الجنان.

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٥٨).

﴿ قُلْ ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه إلى رسول الله ﷺ ﴿ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ ﴾ أي بإنزال القرآن الكريم، وهو المراد بالفضل، وبرحمته المراد بها الإسلام، وهذا هو المروي عن ابن عباس قال: فضل الله القرآن، ورحمته الإسلام، وروي عن مجاهد أن المراد بالفضل والرحمة القرآن، ﴿ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ أي إن فرحوا بشيء، فبذلك فليفرحوا، لا بشيء آخر، فإنه أولى ما يفرحون به لا بالمال الزائل ﴿ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ من حطام الدنيا من الأموال، والحرث، والأنعام، فإنها صائرة إلى الزوال، والسعادات الروحية أفضل من السعادات الجسمية.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَقْتُلُوا ﴾ (٥٩).

﴿ قُلْ ﴾ يا رسول الله لكفار مكة ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أي أخبروني ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ ﴾ أي ما قُدِّر لانتفاعكم من الرزق الحلال ﴿ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا ﴾ أي قسمتموه إلى حرام وحلال، وقتلتم افتراءً على الله ﴿ هَذِهِ أَنْعَامٌ ﴾

وَحَزْتُ حَجْرًا ﴿١٦﴾ وقلتم أيضاً كذباً وبهتاناً ﴿١٧﴾ مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَرْوَاجِنَا ﴿١٨﴾ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مَعَ كَوْنِهِ كُلَّهُ حَلَالًا ﴿١٩﴾ قُلْ أَللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ﴿٢٠﴾ فِي التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ فَتَقُولُونَ ذَلِكَ بِحُكْمِهِ ﴿٢١﴾ أَمْرٌ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٢٢﴾؟ فِي نِسْبَةِ ذَلِكَ إِلَيْهِ، وَالِاسْتِفْهَامِ لِلتَّقْرِيرِ وَالتَّبَكُّيْتِ كَأَنَّهُ قِيلَ: أَمْ لَمْ يَأْذِنْ لَكُمْ بَلْ تَفْتَرُونَ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ، وَالْآيَةُ زَاجِرَةٌ عَنِ التَّجَوُّزِ فِيمَا يَسْتَلُ مِنَ الْأَحْكَامِ وَبَاعِثَةٌ عَلَى الْإِحْتِيَاطِ فِيهِ وَأَنْ لَا يَقُولَ أَحَدٌ فِي شَيْءٍ جَائِزٍ أَوْ غَيْرِ جَائِزٍ إِلَّا بَعْدَ إِيقَانٍ، وَإِلَّا فَهُوَ مَفْتَرٌ عَلَى اللَّهِ.

﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ ﴿٢٣﴾ .

﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ ﴾ كَلَامٌ مَسْووقٌ مِنْ قِبَلِهِ تَعَالَى لِيَبَانَ مَا سَيَلْقَوْنَهُ، أَيُّ مَا ظَنُّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَتَخَرَّصُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ، فَيَحْلُونَ وَيَحْرَمُونَ مِنْ تَلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ؟ ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ظَرْفٌ لِلظَّنِّ أَيُّ أَيُّ شَيْءٍ ظَنَّهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ؟ أَيَحْسِبُونَ أَنْ يَعْاقَبُوا وَلَنْ يُجَازُوا عَلَيْهِ؟ وَالْمُرَادُ تَهْوِيلُ مَا يُصْنَعُ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ، وَهُوَ وَعِيدٌ عَظِيمٌ حَيْثُ أَبْهَمَ أَمْرَهُ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ بِإِمْهَالِهِمُ وَالْإِنْعَامَ عَلَيْهِمْ بِالْعَقْلِ، وَهَدَايَتَهُمْ بِالرِّسَالِ، وَإِنْزَالَ الْكُتُبِ حَيْثُ أَرشَدَهُمْ إِلَى مَا يَهْمُهُمْ، مِنْ أَمْرِ الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ، وَبَيَّنَّ لَهُمْ مَا لَا تَسْتَقِلُّ عَقُولُهُمْ بِإِدْرَاكِهِ، وَرَعَّبَهُمْ وَرَهَّبَهُمْ، وَشَرَحَ لَهُمُ الْأَحْوَالَ، وَمَا يَلْقَاهُ الْحَائِرُ عَنِ الرَّشَادِ مِنَ الْأَهْوَالِ ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ تِلْكَ النِّعَمُ الْجَلِيلَةُ، فَلَا يَصْرَفُونَ قَوَاهِمَ وَمَشَاعِرَهُمْ إِلَى مَا خُلِقَتْ لَهُ.

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ ﴿٢٤﴾ .

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾ ما نافية، والخطابُ للنبي ﷺ، والشأنُ: الأمرُ والحال في أمر هام يُعتنى به ﴿ وَمَا تَلَوْتُمُنَّ ﴾ أي وما تقرأ من كتاب الله شيئاً أنزله الله عليك ﴿ مِنْ قُرْآنٍ ﴾ مجيد أوحاه الله إليك ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ﴾ تعميم للخطاب بعد تخصيصه، يتناول الجليل والحقير، أي أيَّ عمل كان، فعبر في مقام الخصوص بالشأن، لأن عمل العظيم عظيم، وفي الثاني بالعمل العام لأنه يشمل جميع الأعمال ﴿ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا ﴾ أي إلا كنا شاهدين رقباء عليكم، نحصي عليكم أعمالكم ﴿ إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ أي حين تخوضون وتشرعون فيه، وأصل الإفاضة: الاندفاع بكثرة أو قوة، يعني أن الله سبحانه شاهد عليكم، حين تخوضون في ذلك العمل ﴿ وَمَا يَعْرُزُ عَنْ رَزِيكٍ ﴾ أي لا يبعد ولا يغيب عن علمه الشامل ﴿ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ ﴾ من مزيدة لتأكيد النفي، أي ما يغرب عنه ما يساوي مقدار وزن ذرة، وهي مثل لأقصى الشيء في القلة ﴿ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ أي في دائرة الوجود والإمكان، والمقصود إقامة البرهان على إحاطة علمه سبحانه، وفيه تسليئة للمطيعين، وتخويف للمذنبين ﴿ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ ﴾ من الذرة ﴿ وَلَا أَكْبَرَ ﴾ منها ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ مقرر لما قبله والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ، وقيل: علمه تعالى:

﴿ آيَاتٍ أُولِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾
 الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿ ١٣ ﴾ .

﴿ آيَاتٍ أُولِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ في الآخرة، بيان على وجه التبشير والوعد، لما هو نتيجة لأعمال المؤمنين، في كل ما يأتون وما يذرون، أي الذين يتولونه بالطاعة، ويتولاهم بالكرامة، لا خوف عليهم من لحوق مكروهه، ولا هم يحزنون بفوات مأمول والآية كمجمل يفسره قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بكل ما جاء من عند الله تعالى ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾
الله تعالى بامثال أمره ونهيه، والمراد أنهم جمعوا بين الإيمان، والتقوى،
المفضيين إلى كل خير، المنجيين عن كل شر، فملاك أمر الولاية هو
«التقوى» المأمور به في قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ وبه يحصل
الشهود والحضور، والقرب، فأولياء الله عز وجل هم المؤمنون المتقون،
أخرج أحمد وجماعة عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عِبَادًا،
ليسوا بأنبياء، ولا شهداء، يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشَّهَدَاءُ، عَلَى قُرْبِهِمْ مِنَ اللَّهِ
تَعَالَى، قَالَ أَعْرَابِي يَا رَسُولَ اللَّهِ: انْعَمْتُمْ لَنَا، قَالَ: أَنَسَ تَحَابُّوا فِي
اللَّهِ...»^(١) الحديث، وقد أورده ﷺ حسبما يقتضيه مقام الإرشاد، ترغيباً
للحاضرين، وأريد بقوله ﷺ: «يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ» الإشارة إلى راحتهم مما
يعتري الأنبياء، من الاشتغال بأمرهم، وقال بعض المحققين: إِنَّ ذَلِكَ تَصْوِيرٌ
عَلَى طَرِيقَةِ التَّمثِيلِ، وَأَيًّا مَا كَانَ، فَلَا دَلِيلَ فِيهِ أَنَّ الْوِلَايَةَ أَفْضَلُ مِنَ النَّبُوَّةِ،
وقد كفر معتقد ذلك.

﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِيلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ
ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(١٤).

﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وهو ما بَشَّرَ به المتقين، في كتابه وعلى
لسان نبيه ﷺ، البشرى في الأصل الخبر بما يظهر السرور في بشرة الوجه،
وورد أن البشرى في الحياة الدنيا هي: «الرؤيا الصالحة» فقد أخرج أحمد
والترمذي، وابن ماجه عن عبادة بن الصامت قال: سألت رسول الله ﷺ

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند، وأورده الطبري وابن كثير، وتتمته «تحابوا في الله على
غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى منابر من
نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، ثم قرأ ﷺ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ
اللَّهِ...﴾ الآية».

عن قوله سبحانه: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: «هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له»^(١) وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لم يَبْقَ بعدي من النبوة إلاّ المَبَشِّرَات، قالوا: وما المَبَشِّرَات؟ قال: الرؤيا الصالحة يراها المؤمن، أو ترى له»^(٢) والراجح أن البشري في الدنيا هي أن تأتيهم الملائكة عند الموت تُبشِّرهم بالرحمة والرضوان، قال الله تعالى: ﴿تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ﴾ وقيل المراد بالمبشرات العاجلة نحو النصر، والفتح، والغنيمة، والثناء الحسن، والذكر الجميل، ونحو ذلك، روى مسلم عن أبي ذر قال: قيل لرسول الله ﷺ: «أرأيت الرجل يعمل من الخير، ويحمده الناسُ عليه!!» قال: تلك عاجلُ بُشْرَى المؤمن»^(٣) ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ بتلقي الملائكة إياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة ﴿لَا نَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أي لا تغيير لأقواله ولا إخلاف لمواعيده قطعياً ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز وراءه.

﴿وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

﴿وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ﴾ إشراكهم وتكذيبهم وتهديدهم، وفيه تسلية للرسول ﷺ عما كان يلقاه من جهة الأعداء، من الأذية الناشئة من مقالاتهم الرديئة، وتبشير له ﷺ بالنصر والعز، إثر بيان أن له ولأتباعه أمناً من كل محذور، وفوزاً بكل مطلوب، فهو متصل بقوله سبحانه: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾ الآية ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ﴾ تعليلٌ للنهي، أي القوة، والنصرة، والغلبة

(١) أخرجه الترمذي رقم ٢٢٧٤ في كتاب الرؤيا، وأحمد في المسند.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) أخرجه مسلم.

﴿لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ لا يملك أحد شيئاً منها، فهو يقهرهم ويعصمك منهم، وقد كان كذلك ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ يسمع ما يقولون في حقك، ويعلم ما يعزمون عليه، وهو مكافئهم بذلك.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ﴿٦٦﴾.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ﴾ خلقاً، وملكاً، وعبيداً ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي العقلاء من الملائكة والثقلين، وتخصيصهم بالذكر لبيان أنهم مع شرفهم، إذا كانوا عبيداً له تعالى، فما عداهم من الموجودات أولى بذلك ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ يعبدون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من غير الله ﴿شُرَكَاءَ﴾ أي ما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء، شركاء في الحقيقة وإن سموها كذلك ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ﴾ أي ما يتبعون يقيناً شيئاً ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي لا يتبعون إلا الظن والخيال الباطل كقوله تعالى: ﴿ما تعبدون من دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمِيَتْهُمَا﴾ ﴿وَإِنْ هُمْ﴾ وما هم أي ﴿إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي إلا يكذبون فيما ينسبونه إليه سبحانه.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ ﴿٦٧﴾.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ مظلماً لتسكنوا فيه ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ لتتحركوا فيه لمصالحكم ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ أي في جعل كلٍّ منهما كما وصف ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي دلالات على توحيد الله تعالى ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع تدبُّرٍ واعتبار، وتخصيص هؤلاء بالذكر لأنهم المنتفعون بها.

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أْتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٦٨).

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ شروع في ذكر ضرب آخر من أباطيل المشركين، ممن زعم أن الملائكة بنات الله، وكذلك اليهود والنصارى قال الله تعالى لهم ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ تنزيهاً وتقديساً له عما نسبوه إليه، وتعجبياً من كلمتهم الحمقاء ﴿ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ عن كل شيء في كل شيء علةً لتنزهه تعالى، وإيداناً بأن اتخاذ الولد، مسبب عن الحاجة، وهو سبحانه الغني عن كل شيء ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي من العقلاء وغيرهم، وهو تقرير لغناه وتحقيق لما عليه لكل ما سواه ﴿ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أي حجة ﴿ بِهَذَا ﴾ بما ذكر من القول الباطل، والاتفات إلى الخطاب، لمزيد المبالغة في التقرير والتوبيخ على جهلهم ﴿ أْتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي أتفترون على الله وتكذبون، فتنسبون إليه الشريك والولد؟ وفيه تنبيه على أن كل مقالة لا دليل عليها فهي جهالة، وأن العقائد لا بد لها من برهان قطعي، وأن التقليد بمعزل من الاعتداد به.

﴿ قُلْ إِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ (٦٩) ﴿ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ (٧٠).

﴿ قُلْ ﴾ تلوين للخطاب ليعين سوء مغبتهم، ووخامة عاقبتهم ﴿ إِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ بنسبة الولد والشريك إليه سبحانه ﴿ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ أي لا ينجون من مكروهه، ولا يفوزون بمطلوب. ﴿ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ﴾ أي يتمتعون مدة حياتهم، كأنه قيل: كيف لا

يفلحون وهم في غبطة ونعيم؟ فقيل: ذلك متاع حقير، وقليل في الدنيا، ﴿ثُمَّ إِنَّا مَرَجَهُمْ﴾ بالموت والبعث ﴿ثُمَّ نَذَيْقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ فييقون في العذاب المؤبد، بسبب كفرهم المستمر، فأين لهم من الفلاح؟ ولما ذكر الله تعالى في هذه السورة، أحوال كفار قريش، شرع في بيان قصص بعض الأنبياء عليهم السلام، تسلياً للرسول ﷺ، وعبرة لغيره.

﴿وَآتَلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ ﴿٧١﴾

﴿وَآتَلَّ عَلَيْهِمْ﴾ أي على المشركين ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي خبره الذي له شأن عظيم، مع قومه الذين هم أمثال قومك، لينزجروا بسماع ذلك عما هم عليه من الكفر والعناد ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ اللام للتبليغ ﴿يَتَقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ﴾ أي عظم وشق، لأن من ألف ديناً، يثقل عليه أن يدعى إلى خلافه، ويذكر له ركاكته ﴿عَلَيْكُمْ مَقَامِي﴾ أي لبثي فيكم، ومكثي بين ظهرانيكم ﴿وَتَذِكْرِي بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على الوحدانية، المبطللة لما أنتم عليه من الشرك، وإنما شق عليهم الوعظ، لأن الطباع المشغوفة بالدنيا، الحريصة على طلب اللذات العاجلة، تكون شديدة النفرة على الأمر بالمعروف، والناهي عن المنكر ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ جواب للشرط أي فوضت أمري إليه لا على غيره، وهو عبارة عن إظهار عدم مبالاته عليه السلام باستثقالهم ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾ أجمع الأمر إذا عزم عليه، ويقال: أجمع أمرك ولا تدعه منتشرأ أي اعزموا على أمرٍ تفعلونه بي ﴿وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ الواو بمعنى مع أي مع شركائكم، التي زعمتم أنها شركاء لله سبحانه، وإسناد الإجماع إلى الشركاء على طريق التهكم ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ مستوراً، من غمه إذا ستره بل مكشوفاً ومشهوداً، تجاهروني به، وإنما خاطبهم بذلك، إظهاراً لعدم

المبالاة بهم، وثقة به سبحانه، بما وعده من عصمته ﴿ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُون﴾ أي امضوا في ما أردتموني ولا تمهلوني، فإني لست مبالياً بكم.

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٧٧﴾ .

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ فإن أعرضتم عن تذكيري ونصحي ﴿فَمَا سَأَلْتُكُمْ﴾ في مقابلة وعظي وتذكيري ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ تؤدونه إليّ حتى يدعو ذلك إلى توليتكم، لثقله عليكم ﴿إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ تأكيد لما قبله، أي ما أجري وثوابي على العظة والتذكير، إلا على الله تعالى، يثيني به أمتهم أو توليتهم ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي أمرت لأن أكون من المنقادين لحكمه تعالى، فلا أخالف أمره، ولا أرجو غيره، أرشدهم عليه السلام إلى ما فيه سعادتهم وفلاحهم، وبلغ الغاية في التوكل على الله سبحانه، وبراً ساحته عن السؤال منهم شيئاً من الأجر، ولكن القوم بلغوا الغاية في الكفر والتمرد والعناد.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَبَّيْنَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْتِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكِبِينَ﴾ ﴿٧٨﴾ .

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فأصروا على ما هم عليه من التكذيب، بعدما ألزمهم الحجة، فلا جرم حقت عليهم كلمة العذاب ﴿فَجَبَّيْنَهُ﴾ أي فأغرقنا القوم وأنجيناه من الغرق ﴿وَمَنْ مَعَهُ﴾ من المؤمنين به، وكانوا في المشهور أربعين رجلاً، وأربعين امرأة ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ أي السفينة ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ أي من معه ﴿خَلْتِفَ﴾ في الأرض يخلفون الهالكين بالغرق ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وهم الباقون من قوم نوح، وتأخير ذكر الإغراق عن الإنجاء، لتعجيل المسرة للسامعين ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكِبِينَ﴾ المخوفين بعذاب

الله تعالى، والمراد بهم المكذبين، والتعبير عنهم بذلك، للإشارة إلى إصرارهم على التكذيب، حيث لم ينجع الإنذار فيهم، وقد جرت العادة أن لا يهلك الله القوم إلا بعد الإنذار، فانظر أيها الإنسان كيف كان عاقبة قوم، كذبوا الرسل عليهم السلام، وكذبوا آيات الله تعالى؟.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٧٤).

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا ﴾ أي أرسلنا ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ من بعد نوح ﴿ رَسُولًا ﴾ التنوين للتفخيم ذاتاً وصفة أي رسلاً كثيراً، كراماً، منهم: هود، وصالح، وإبراهيم، وغيرهم ﴿ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ ﴾ كلُّ رسول إلى قومه خاصة ﴿ فَجَاءَهُمْ ﴾ أي فأتى كل رسول قومه المخصوص به ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ بالحجج الواضحات المثبتة لدعواهم ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾ أي فما صح لقوم من أولئك الأقوام، أن يؤمنوا لشدة سكينتهم في الكفر والعناد ﴿ بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ وما موصولة والمراد بها جميع الشرائع التي جاء بها كلُّ رسول، بعد تواتر البينات التي تضطرهم إلى القبول، لو كانوا من أهل العقول ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الطبع المحكم ﴿ نَطْبَعُ ﴾ نختم ﴿ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾ أي المتجاوزين الحدَّ في الكفر والعناد، لانهماكهم في الغي والضلال.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ (٧٥).

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ من بعد أولئك الرسل ﴿ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ خُصَّتْ بعثتهما بالذكر، إيداناً بخطر شأن القصة، وعظم وقعها كما في قصة نوح ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ أي قومه من استعمال الخاص في العام ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ بالمعجزات الواضحة ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا ﴾ أي تكبروا عن قبولها، وتعظّموا عن الاتباع، الفاء فصيحة، أي فأتياهم فبلغاهم الرسالة فاستكبروا

﴿ وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ أي كانوا معتادين، لارتكاب الذنوب العظام، فلذلك اجترؤوا على ما اجترؤوا عليه، من الاستهانة والتكذيب.

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا ﴾ أي فلما جاءهم موسى بالمعجزات الواضحة من اليد، والعصا، وسائر المعجزات البيّنات ﴿ قَالُوا ﴾ من فرط عتوهم ﴿ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي ظاهر كونه سحرا.

﴿ قَالَ مُوسَى ﴾ لهم على سبيل الاستفهام التوبيخي ﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ ﴾ الذي هو أبعد شيء من السحر ﴿ لَمَّا جَاءَكُمْ ﴾ أي حين مجيئه إياكم، من غير تأمل وتدبر لما تقولون، من أنه سحر مبين؟ ﴿ أَسِحْرٌ هَذَا ﴾؟ تكذيب لقولهم وتجهيل لهم، أي أيّ سحر هذا الذي أمره واضح، لا ترتاب فيه عين مبصرة ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ تأكيد للإنكار السابق، أي أتقولون إنه سحر، والحال أنه لا يفلح فاعله، وأنا قد أفلحتُ وظفرتُ بالحجة؟.

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ قَالُوا ﴾ بعد أن ألقمهم الحجر، فانقطعوا عن الجواب الصحيح، واضطروا إلى التثبت بذيل التقليد، الذي هو دأب كل عاجز محجوج ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَلْفِنَا ﴾ أي لتصرفنا ﴿ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ﴾ من عبادة الأصنام وعبادة فرعون ﴿ وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ ﴾ أي الملك والعظمة والتكبر على الناس باستتباعهم ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ أرض مصر ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أي بمصدقين فيما جئنا به وأرادوا بقولهم هذا، إغاظه موسى عليه السلام، وإقناطه عن الإيمان بما جاء به.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ ﴿٨٠﴾ . ﴾

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ أسند الفعل إليه وحده، لأن الأمر من وظائفه، أي قال لملكه وجماعته ﴿ أَتْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴾ في فن السحر ماهر فيه .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةُ ﴾ عطف على مقدر أي فأتوا فلما جاء السحرة ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ ﴾ بعدما قالوا له ﴿ إِمَّا أَنْ تُلْقِي وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلقِينَ ﴾؟ ﴿ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ ﴾ أي ما استقر رأيكم على إلقائه كائناً ما كان من أصناف السحر ولا يخفى ما في الإبهام من التحقير، والإشعار بعدم المبالاة .

﴿ فَلَمَّا أَلْقُوا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ . ﴾

﴿ فَلَمَّا أَلْقُوا ﴾ ما ألقوا من العصي والحبال، واسترهبوا الناس وجاؤوا بسحر عظيم ﴿ قَالَ ﴾ لهم ﴿ مُوسَىٰ ﴾ غير مكترث بهم وبما صنعوا ﴿ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ ﴾ أي الذي جئتم به هو السحر، لا الذي سمّاه فرعون من آيات الله سحراً ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ ﴾ أي إن الله تعالى سيمحقه بالكلية بما يظهره على يدي من المعجزة والسين للتأكيد ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أي لا يصلح عمل من سعى في الأرض بالفساد .

﴿ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ ﴾ أي يثبت ويظهره ويقويه بالحجج والبراهين ﴿ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ بوعده الكريم ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ ذلك والمراد بهم كل من اتصف بإجرام من السحرة وغيرهم .

﴿ فَمَاءٌ آمِنٌ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ . ﴾

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى ﴾ في الآية حذف، أي فألقى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون.. الخ وإنما لم يذكره إيثاراً للإيجاز، أي فما آمن لموسى بمشاهدة تلك الآيات في مبدأ أمره ﴿ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ ﴾ طائفة ونفر قليل ﴿ مِّن قَوْمِهِ ﴾ من بني إسرائيل حيث لم يؤمنوا خوفاً من فرعون ﴿ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ ﴾ التنوينُ للتعظيم، أي كائنين على خوفٍ عظيم من فرعون وملته، وضميرُ الجمع ﴿ وملائتهم ﴾ يرجع إلى الذرية، والجمعُ باعتبار المعنى، ويؤول إلى أنهم آمنوا على خوف من فرعون، ومن أشرف قومهم ﴿ أَن يَفْنِيَهُمْ ﴾ أي يعذبهم، وإسناد الفعل إلى فرعون خاصة لأنه الأمر بالتعذيب ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي متكبر وغالب في أرض مصر، واستعمالُ العلو في الغلبة مجاز ﴿ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ المتجاوزين الحدَّ بادعاء الربوبية، وفي الظلم والفساد بالقتل والعتو.

﴿ وَقَالَ مُوسَى يُقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ .

﴿ وَقَالَ مُوسَى ﴾ لما رأى تخوف المؤمنين منه ﴿ يُقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ ﴾ أي صدقتم بالله وآياته ﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا ﴾ وبه ثقوا، ولا تخافوا أحداً غيره، فإنه كافيكم كلَّ شر وضرٍّ ﴿ إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ مستسلمين لقضاء الله، مخلصين له.

﴿ فَقَالُوا ﴾ أي قوم موسى مجيبين له من غير تلثم في ذلك ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ عليه اعتمادنا لا على غيره، ويؤخذ من هذا أنهم كانوا مخلصين، ثم دعوا قائلين ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أي موضع فتنة، أي لا تسلطهم علينا حتى يعذبونا أو يفتنونا عن ديننا.

﴿ وَنَحْنَا ﴾ أي خلصنا ﴿ بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ أي من أيديهم

وكيدهم، دعاء للإنجاء من سوء جوارهم، وسوء صنيعهم بعد الإنجاء من ظلمهم ولذا عبّر عنهم بالكفر، بعدما وصفوا بالظلم.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بَيْوتًا وَأَجْعَلُوا
بَيْوتَكُمْ قِبْلَةً وَاقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٤٧﴾

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا ﴾ أي اتخذنا منزلاً ووطناً ﴿ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بَيْوتًا ﴾ ترجعون إليها للصلاة والعبادة ﴿ وَأَجْعَلُوا ﴾ أنتما وقومكما، فيه تغليب المخاطب على غيره ﴿ بَيْوتَكُمْ ﴾ تلك فالإضافة للعهد ﴿ قِبْلَةً ﴾ مصلى، وقيل: مساجد نحو القبلة يعني الكعبة، فإن موسى كان يصلي إليها، وكانوا في أول الأمر يصلون في بيوتهم خفية، كما كان المسلمون في أول الإسلام بمكة ﴿ وَاقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ أي حافظوا على الصلاة فيها حتى تأمنوا، والصلاة في المساجد أفضل، وأرجى للتضرع ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بالنصر والجنة.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ
فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ ﴿٤٨﴾

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً ﴾ هو ما يتزين به من لباس، وحلي، وفرش وأثاث ومراكب ونحوها ﴿ وَأَمْوَالًا ﴾ أنواعاً كثيرة من المال، كما يشعر به الجمع والتنوين ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ﴾ عن دينك، والكلام إخبار من موسى، بأن الله تعالى إنما أمدهم بالزينة والأموال، استدراجاً ليزدادوا إثماً، وذكر قوله تمهيداً للتخلص إلى الدعاء عليهم، أي إنك أوليتهم هذه النعمة، ليعبدوك وليشكروك، فما زادهم ذلك إلا طغياناً وكفراً، ليضلوا عن سبيلك، والمقصود عرض ضلالهم

وكفرانهم، فقدّمه للدعاء عليهم ﴿رَبَّنَا أَطْمَسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ﴾ الطمسُ: المحقُّ أي أهلكها وبدّدها كما قاله مجاهد فالمراد بالطمس إتلافها ﴿وَأَشَدُّ عَلَيَّ قُلُوبِهِمْ﴾ أي اجعلها قاسية، واطبغ عليها حتى لا تنشرح للإيمان، وهذا دليل على أن الله تعالى يفعل ذلك لمن يشاء، ولولا ذلك لما حَسُنَ من موسى هذا ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا﴾ جواب للدعاء ﴿حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي إلى أن يروا العذاب الموجه المؤلم، وكان كذلك، فإنهم لم يؤمنوا إلى الغرق، وعن ابن عباس تفسير العذاب الأليم بالغرق، وهذا يدل على أن الدعاء على الغير بالموت على الكفر، لا يكون كفراً، إذا لم يكن على وجه الاستحسان، بل على وجه التمني لينتقم الله منه أشد انتقام.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٨٩).

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا﴾ أي قد استجبت دعوتكما على فرعون وقومه، وظاهر الآية يدل على أن هارون كان يؤمّن على دعاء أخيه، والتأمينُ دعاء، ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا﴾، ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ فاثبتا على ما أنتما عليه، من الدعوة وإلزام الحجة، فلا تستعجلان، فإن ما طلبتما كائن في وقته لا محالة، أخرج ابن المنذر عن ابن عباس أنه قال: يزعمون أن فرعون مكث بعد هذا الدعاء أربعين سنة ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ﴾ أي طريق الجهلة الذين ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ بعادات الله تعالى في تعليق الأمور بالحكم والمصالح، أو سبيل الجهلة في الاستعجال، وعدم الوثوق بوعد الله تعالى.

﴿وَجَوْرْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩١).

﴿وَجَنُوزَنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ هو من جاوز المكان إذا تخطاه، أي جعلناهم مجاوزين ﴿الْبَحْرَ﴾ بأن جعلناه ييساً، حتى بلغوا الشط، وفيه إشعارٌ بانفصالهم عن البحر، وبمقارنة العناية الإلهية لهم عند الجواز ﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ أي أدركهم ولحقهم ﴿فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ﴾ حتى تراءت الفتان، وكاد يجتمع الجمعان ﴿بَغِيًّا وَعَدُوًّا﴾ أي للبغي والعدوان، وذلك أن موسى عليه السلام، خرج ببني إسرائيل، على حين غفلة من فرعون، فلما سمع به تبعهم حتى لحقهم، ووصل إلى الساحل، وهم قد خرجوا من البحر، ومسلكهم باق على حاله، فسلكه بجنوده أجمعين، فلما دخل آخرهم، غشيتهم من اليم ما غشيتهم ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْفُ﴾ أي لحقه وأجمه وقيل: قارب إدراكه لأن حقيقة اللحوق تمنعه من القول ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿ءَأَمَنْتُمْ أَنَّهُ﴾ أي بأنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ ولم يقل كما قال السحرة ﴿آمنا برب العالمين﴾ للإشعار برجوعه عن الاستعصاء، طمعاً في القبول، والانتظام معهم في سلك النجاة ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ الذين أسلموا نفوسهم لله تعالى، كرر المعنى الواحد حرصاً على النجاة، وهيهات للإيمان لا ينفعه قبل اليأس.

﴿ءَأَلْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٩١)

﴿ءَأَلْتَنَ﴾ أي فقيل له: الآن تؤمن؟ أي أتؤمن في حال اليأس، حين أدركك الغرق، وأيقنت بالممات؟ والقائل هو جبريل، فقد روي عن ابن عباس قال: قال ﷺ: «قال لي جبريل لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر - أي طين ووحل البحر - فأدسّه في في فرعون، مخافة أن تدركه الرحمة» (١) ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ أي وقد عصيت الله قبل نزول نعمته بك، والفعل المقدر جيء به لتشديد التوبيخ على تأخير الإيمان إلى هذا الآن،

(١) أخرجه البيهقي والحاكم والترمذي في كتاب التفسير ٢٦٨/٥ وقال: حديث حسن.

بيان أنه لم يكن تأخيره لعدم بلوغ الدعوة إليه ولا للتأمل والتدبر بل كان ذلك على طريقة الرد والاستعصاء والإفساد ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي وقد كنت من المفسدين، الموغلين في الضلال والإضلال!!.

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِدَنِّكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَفُلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ أي نخرجك من البحر، وفي التعبير عنه بالتنجية تهكمٌ به ﴿بِدَنِّكَ﴾ جسدك الذي لا روح فيه، وهو تخيبٌ له ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ عبرة، فيعرفوا عبوديتك ولا يقدموا على مثل فعلك، وفي تعليل تنجيته بما ذكر، إيدان بأنها ليست لإعزازه، بل لكمال استهاتته وتفضيحه، كمن يُقتل ثم يُجرُّ جسده في الأسواق، وقد قرر فحوى الكلام بقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَفُلُونَ﴾ لا يتفكرون فيها، ولا يعتبرون بها.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ كلام مستأنف لبيان النعم الفائضة عليهم، وإخلاقهم بشكرها، أي أسكنناهم بعدما أنجيناهم ﴿مَبُوءًا صِدْقٍ﴾ منزل كرامة، صالحاً مرضياً للسكنى ﴿صِدْقٍ﴾ وهو أرض الشام، بعد العمالة وتمكنوا في نواحيها، والمراد من بني إسرائيل ذريتهم، لأنهم ما دخلوا في حياة موسى الشام، وإنما دخلها أبناؤهم ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي اللذائذ ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ في أمر دينهم، بل كانوا متبعين رسولهم ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي إلا بعد ما جاءتهم التوراة التي فيها حكم الله، وهذا ذم لهم لأن اختلافهم كان بسبب الدين، والدين يجمع ولا يفرِّق، وقيل: فما اختلفوا في أمر محمد ﷺ، إلا بعد ما علموا صدق نبوته، بنعوته المذكورة في

كتابهم، وتظاهر معجزاته، وهو ظاهر إذا كان المراد من المبوتين ذريتهم، أما الذين كانوا في عصر موسى، فإنهم لم يختلفوا في أمر نبينا ﷺ لينسب إليهم ذلك الاختلاف^(١) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيميز بين المحق والمبطل، بالإثابة والتعذيب.

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ﴿٩٤﴾ .

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ﴾ هذا محمولٌ على الفرض والتقدير، كقوله عز وجل ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ ومحالٌ أن يكون لله ولد، وقيل: الخطاب للنبي ﷺ والمراد غيره ممن يسمع، أي إن كنت أيها السامع، في شكٍّ مما أنزلنا على لسان نبينا ﴿مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ من القصص التي من جملتها قصة فرعون، وأخبار بني إسرائيل ﴿فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ هو التوراة، فإن ذلك محقق عندهم، ثابتٌ في كتبهم وروي أنه ﷺ قال: «لا أشكُّ ولا أسأل»^(٢) ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ﴾ أي ثبت عندك وأتاك البيان الحق، الذي لا ريب في حقيقته ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ وظهر ذلك بالمعجزات القاطعة ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي الشاكِّين فيه المرتابين، والامتراء: الشكُّ والتردد.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿٩٥﴾ .

(١) هذا القول ذهب إليه الطبري ١٦٧/١١ حيث قال: كانوا قبل أن يبعث محمد ﷺ مجمعين على نبوته، والإقرار بمبعثه، فلما جاءهم ما عرفوا كفر به بعضهم، وآمن البعض، فذلك اختلافهم.

(٢) هذا حديث موقوف على قتادة قال: «بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: لا أشكُّ ولا أسأل» انظر تفسير ابن كثير ٢٠٧/٢.

﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ أي بشيء منها ﴿ فَتَكُونُ ﴾
بذلك ﴿ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ نفساً وعملاً وهذا كله من باب التَّهْيِيجِ والتثبيت،
وقطع أطماع المشركين عنه، وقيل: المراد ممن عنده شك وارتياب، وقد
كان الناس في أول عصر النبي ﷺ على ثلاثة فرق: مصدقون، ومنكرون،
ومتوقفون، فخطبهم الله تعالى بهذا الخطاب، وإنما وُحِدَ الضمير لأنه
خطاب لجنس الإنسان، وفيه تنبيه على أنه من خالجه شبهة في الدين،
ينبغي أن يسارع إلى حلها، بالرجوع إلى أهل العلم.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي ثبتت عليهم ﴿ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ أي
حكمه وقضاؤه بأنهم يموتون على الكفر، ويخلدون في النار ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾
إيماناً نافعاً عند معاينة العذاب، مثل فرعون والطغاة من كفار مكة.

﴿ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾

﴿ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴾ واضحة المدلول، مقبولة لدى العقول، لأن
سبب إيمانهم مفقود، لكنَّ فقدانه ليس لمنع منه سبحانه وتعالى، بل لسوء
اختيارهم ﴿ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ أي عند اليأس كدأب آل فرعون، والذي
عليه أهل السنة أنَّ أفعال العباد بأسرها، معلومة له تعالى، ومرادة، ولا
يكون إلا ما أراد الله سبحانه، ولا يريد إلا ما عِلِمَ، ولا جبر هناك ولا
تفويض، ولكنَّ الأمر بين الأمرين، وإن أردت تحصيل الإيقان، فعليك
رسالة المولى الكوراني في هذا الشأن.

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيَةً ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا
كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً ﴾ أي فهلاً كانت قرية من القرى المهلكة ﴿ ءَامَنْتَ ﴾ قبل معاينة العذاب، ﴿ فَفَنَقَعَهَا إِيمَانَهَا ﴾ بأن يقبل الله تعالى إيمانهم، فيكشف بسببه العذاب عنهم ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ﴾ استثناء منقطع، أي لكن قوم يونس ﴿ لَمَّا ءَامَنُوا ﴾ أول ما رأوا أمارة العذاب، ولم يؤخروا إلى حلوله ﴿ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ بعدما أظلمهم وكاد يحلُّ بهم ﴿ وَمَتَّعْنَاهُمْ ﴾ بمتاع الدنيا ﴿ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ مقدَّر لهم في علم الله تعالى، وكان من قصة هؤلاء القوم، على ما روي عن غير واحد، أن يونس عليه السلام، بُعث إلى أهل «نينوا» من أرض الموصل، وكانوا أهل شرك، فدعاهم إلى الإيمان بالله وحده، فأبوا وكذبوه، فأخبرهم أن العذاب مصبِّحهم إلى ثلاث، فلما كانت الليلة الثالثة، ذهب عنهم من جوف الليل، فلما أصبحوا غامت السماء، غيماً أسود هائلاً، حتى غشيت مدينتهم، فقالوا: إنا لم نجرب عليه كذباً قطُّ، فانظروا فإن بات فيكم الليلة، فليس بشيء، وإن لم يبت فاعلموا أن العذاب مصبِّحكم، فطلبوه فلم يجدوه، فأيقنوا صدقه، فخرجوا إلى الصحراء بأنفسهم، ونسائهم، وصبيانهم، ودوابهم، وأظهروا الإيمان والتوبة، وتضرَّعوا إلى الله تعالى، وأخلصوا النية، وقالوا في دعائهم: اللهمَّ إِنَّ ذُنُوبَنَا قَدْ عَظُمَتْ، وَجَلَّتْ، وَأَنْتَ أَعْظَمُ مِنْهَا وَأَجَلُّ، افعل بنا ما أنتَ أهله، ولا تفعل بنا ما نحن أهله، فرحمهم ربهم واستجاب دعاءهم، وكشف الضر عنهم، والفرق بين إيمانهم وإيمان فرعون، أن فرعون آمن في العذاب، وهم آمنوا قبله، وظاهر الآية أنهم شاهدوا العذاب، وعادة الله عز وجل حينئذٍ إهلاكهم من غير إمهال، وقبول إيمانهم من خصوصياتهم.

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ﴾ أي لو شاء سبحانه إيمان من في الأرض من الثقيلين، لأمن كلهم مجتمعين على الإيمان، لكنه

لم يشأه لكونه مخالفاً لأساس التكوين والتشريع ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ﴾؟ الفاء للعطف على مقدر، كأنه قيل: أربك لا يشاء ذلك، فأنت تكرههم؟ ﴿حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي ليس لك مشيئة الإكراه، والجبر على الإيمان، لأن الإيمان فعل العبد، وفعله لا يتحقق بدون الاختيار، والآية تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام، وترويح لقلبه الشريف مما كان يحرص عليه من إيمانهم (١).

﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٠٠).

﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ﴾ أي ما صحَّ وما استقام لنفس من النفوس البشرية ﴿أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي إلا بإرادته وبتسهيله ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ﴾ أي الكفر بقريظة ما قبله، عبّر عنه بالرجس لكونه علماً في القبح ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي لا يستعملون عقولهم، بالنظر في الحجج والآيات ولا يعقلونها.

﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠١).

﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول لأهل مكة، حثاً لهم على التدبر في ملكوت السماوات والأرض، وما فيهما من تعاجيب الآيات، ليتضح لك أنهم لا يعقلون ﴿أَنْظَرُوا﴾ أي تفكروا ﴿مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؟ أي أي شيء

(١) قال ابن عباس: كان النبي ﷺ حريصاً على إيمان جميع الناس، فأخبره تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبقت له السعادة في الذكر الأول - أي اللوح المحفوظ - ولا يضل إلا من سبقت عليه الشقاوة في الذكر الأول. تفسير القرطبي ٨ / ٣٨٥.

بديع فيهما، من عجائب صنعه الدالة على وحدته وقدرته؟ ﴿ وَمَا تَعْنِي ﴾ وما تنفع ﴿ الْآيَاتُ ﴾ وهي التي عبر عنها ماذا في السماوات والأرض ﴿ وَالنُّذُرُ ﴾ بمعنى الإنذارات، أي لا تنفع الآيات والإنذارات ﴿ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي عن قوم سبق لهم من الله الشقاء لأنهم لا يعقلون.

﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾.

﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ ﴾ أي فما ينتظر مشركو مكة وأضرابهم ﴿ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا ﴾ أي إلا مثل أيام أسلافهم الطغاة ﴿ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ من مشركي الأمم الماضية، ونزول عذاب الله بهم ﴿ قُلْ ﴾ تهديداً لهم ﴿ فَانظُرُوا ﴾ ما هو عاقبتكم ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ لذلك، وحاصله أن الأنبياء كانوا يتوعدون كفار زمانهم بأنواع العذاب، وهم كانوا يكذبون بها ويستعجلونها على سبيل السخرية، وكذلك الكفار في زمنه ﷺ يستعجلونها استهزاءً، فقل لهم فانظروا ما يحلُّ بكم، وأنا منتظر لنزول ذلك العذاب، لأن وعد الله لا يُخلف!.

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا ﴾ عطف على مقدَّر، كأنه قيل: أهلكنا الأمم ثم ننجي رسلنا المرسله إليهم ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أي نجيناهم ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الإنجاء ﴿ حَقًّا عَلَيْنَا ﴾ أي حَقٌّ ذلك حَقًّا عَلَيْنَا ﴿ نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي من كل شدة وعذاب، وفيه تنبيه على أن مدار النجاة هو الإيمان بالله وقوله ﴿ حَقًّا عَلَيْنَا ﴾ أي إنه كائن لا محالة، كأنه كالواجب عليه تعالى فضلاً منه وكرماً.

﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١١٠)

﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ ﴾ أوثر الخطابُ باسم الجنس، إظهاراً لكمال العناية بشأن ما بُلغ إليهم ﴿ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي ﴾ أي إن كنتم في شك من حقيقة ديني الذي أدعوكم إليه، والتعبيرُ بالشك مع كونهم قاطعين بعدم الصحة، للإيدان بأن أقصى ما يمكن عروضه للعاقل هو الشكُّ، وأما القطعُ بعدم الصحة فلا سبيل إليه ﴿ فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ في وقت من الأوقات، لأن العبادة هي غاية التعظيم، فلا تليق لأخس الأشياء من الأصنام، بل تليق بمن في يده الإيجادُ والإعدام، فانظروا بعين الإنصاف، لتعلموا أنه حق لا ريب فيه ﴿ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّكُمْ ﴾ أي يقبض أرواحكم عند انتهاء آجالكم، ويده وحده محياكم ومماتكم، فلا ينبغي لكم أن تشكوا في ديني، وإنما الشكُّ في عبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، وأما إلهي فبيده النفع والضرر. ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بما دل عليه العقل، ونطق به الوحي، وهو تصريح بأن ما هو عليه من دين التوحيد، ليس إلا بالوحي السماوي والتوفيق الإلهي، وقيل لي:

﴿ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١١٠)

﴿ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ أي مائلاً عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق وهو الإسلام، وإقامة الوجه للدين، كناية عن توجيه النفس بالكلية، إلى عبادته تعالى، والإعراض عن سواه ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أي لا تكوننَّ منهم، لا اعتقاداً ولا عملاً.

﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ ﴾ (١١٠)

والمتابعة ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ أي منفعة اهتدائه لها خاصة ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لأن وبال ضلاله عليها، والمراد تنزيه ساحة الرسالة، عن شائبة غرض عائد عليه ﷺ، من جلب نفع، أو دفع ضرر ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ موكولٍ إليَّ أمركم، إنما أنا بشير ونذير.

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾

﴿وَاتَّبِعْ﴾ اعتقاداً وعملاً وتبليغاً ﴿مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ من ربك من الحق المذكور ﴿وَأَصْبِرْ﴾ على تكذيبهم وأذاهم وعلى ما يعتريك من مشاق التبليغ ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ فيهم ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ إذ لا يمكن الخطأ في حكمه، لاطلاعاً على السرائر والظواهر، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه، محمد ﷺ وآله وأصحابه أجمعين.

«تمَّ بعونه تعالى تفسير سورة يونس»

* * *